حاجتنا إلى الثالوث

أو دراسة عن

علاقة الأقنوم والموهبة والحياة في الثالوث

وحقيقة العلاقة بين اللّه والإنسان

دكتور

جورج حبيب باوي

Coptology

Ϩⲁⲛⲱϣ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

حَاجَتُنَا إلى الثَالُوثْ

أو

دراسة عن علاقة الأقنوم والموهبة والحياة في الثالوث

وحقيقة العلاقة بين الله والإنسان

دكتور

جورج حبيب بباوي

إسم الكتاب : حاجتنا إلي الثالوث

المؤلـــــف : الدكتور جورج حبيب بباوي

الناشــــــر: الدكتور جورج حبيب بباوي

رقم الإيـداع : ٢٠٠٧/٣٨٤٣

الطبعة الأولى : فبراير ٢٠٠٧ ميلادية

المحتويات

كلمة لابد منها

نعاني كثيراً من الغموض الذي يحيط بأسرار الله الفائقة، لأنها فعلاً أسرارٌ لا تخضع لقدرات العقل البشري على التحليل والدراسة، ولكن من زاوية هامة، أضاف الجدل العقلي المعاصر الغير مرتبط بالخبرة الروحية الأرثوذكسية الكثير من الغموض إلى ما نمارسه من أسرار كنسية مثل المعمودية والميرون وسر الشكر. فالأسرار لا يمكن مناقشتها إلاَّ في إطارها الخاص بها، وهو الطقس، والممارسة الصحيحة التي ترشدنا إليها الليتورجية. وخارج هذا الإطار، لا نملك مطلقاً أن نناقش الأسرار لأنها تفقد طبيعتها السرية وتتحول إلى موضوعات عقلية. وتفقد أيضاً - بالجدل - روح الصلاة الأرثوذكسية والتقوى العميقة التي تنادي بها الليتورجية "إيمانٌ بلا فحص"، ومَن فقد روح الصلاة، فإنه يناقش الأسرار عقلياً كما يناقش الأسعار وقضايا السياسة والخلافات المذهبية في مدارس اللاهوت والأخلاق والفلسفة.

من هذه الزاوية الدقيقة أصبح من الواضح أننا لا نملك أن نناقش الأسرار إلاَّ من خلال الليتورجية، وهي سر حضور الثالوث الفائق في الصلوات والطقوس. وإذا عُدنا إلى لغة الطقس نفسه وجدنا أنفسنا على الطريق الصحيح الذي يؤدي إلى إدراك صحيح ولغة كنسية صحيحة لمناقشة الأسرار.

وموضوع حاجتنا إلى الثالوث، يعبِّر عنه الطقس الكنسي بأكثر من وسيلة، وبأكثر من تعبير: فهو شركتنا في بنوة الابن التي تبدأ في المعمودية. وهو شركتنا في الحياة الأبدية التي ننالها في الإفخارستيا. وهو شركتنا في الروح القدس التي عندما ننالها في الميرون أي سر المسحة نؤهَّل لنوال باقي الأسرار. إذن حسب لغة الكنيسة، فإن حاجتنا إلى الثالوث هي احتياجنا لأن نكون مسيحيين مُسحنا بالروح القدس وصارت لنا شركة مع الآب والابن في الروح القدس حسب تعبير الرسل وآباء الكنيسة الجامعة. إذن الكلام عن الثالوث هو كلام عن العطايا الفائقة التي ننالها في أسرار الكنيسة وبشكل خاص الأسرار الثلاثة التي سبق وأشرنا إليها.

لقد شاء الله أن نعود إلى دراسة التراث، وكانت هذه العودة بقوة دافعة منذ أكثر من ثلاثين سنة، وإن كانت هذه القوة قد شابها بعض القصور، إلاَّ أننا أصبحنا نملك باللغة العربية الكثير من ترجمات الآباء مثل: رسائل أثناسيوس إلى سيرابيون الخاصة بالروح القدس، وكتاب القديس باسيليوس عن الروح القدس وكلاهما لم يكن معروفاً في السنوات الماضية. كما أصبح في قدرتنا الاستعانة بكتاب الثالوث للقديس كيرلس السكندري الذي نُشر في ثلاثة مجلدات في السلسلة المشهورة "ينابيع المسيحية" التي تصدرها جامعة السوربون في باريس. كما دخلت عدة مجموعات من السلسلة الانجليزية البالغ عددها ٣٨ مجلداً وانتشرت في مكتبات الكنائس، وبذلك كسبنا تفسير كل رسائل القديس بولس للقديس يوحنا ذهبي الفم. كل هذا قد أضاف الكثير جداً لقدرتنا على البحث والمراجعة والتصحيح أيضاً.

أخيراً، إن هذه الدراسة لم تكتب دفاعاً عن وجهة نظر شخص معين ضد شخص آخر، فهذا ليس الأسلوب المسيحي الصحيح، كما أنها أيضاً ليست هجوماً على مدرسة فكرية معاصرة أو قديمة، فالهجوم لا يكشف عن الأصالة والدقة، وإنما هذه دراسة مطروحة للمناقشة. وفي الإطار الذي تحدثنا عنه والذي سوف نتمسك به.

ليعطِ إلهنا الصالح نعمةً لكل من يقرأ بروح التقوى لكي ينضم إلى الآباء وليس إلى فئة أو جماعة، وإنما لكي يصبح إنسان الكنيسة الجامعة حسب صورة المجد التي لربنا يسوع المسيح.



الفصل الأول

الثالوث يعمل فينا في الأسرار

مقدمة

إن العقيدة الأرثوذكسية الخاصة بالله هي حسب الصياغة الرسولية التي تسلمناها من الآباء "نحن نؤمن ونعبد إلهاً واحداً في ثالوث، وثالوث في وحدانية، فالله واحد بالجوهر مثلث الأقانيم". هذه الصيغة لا تجعل أي أقنوم من الأقانيم ينفرد بعمل معين لا يشترك فيه الأقنومين الآخرين، وقد يتخصص أقنوم في عمل معين مثل تجسد الابن، فهو وحده الذي تجسد، ولكن تجسد الابن إنما كان يهدف بالدرجة الأولى إلى تجديد علاقة الإنسان بالآب وبالروح القدس من خلال اتخاذه طبيعة إنسانية يفتحها للحياة الروحية الجديدة ولعلاقة جديدة، كانت غير ممكنة قبل اتحاد لاهوته بالناسوت.

ولقد وُلدت هذه القاعدة أو الصياغة الرسولية من خلال اختبار الرسل ومعاينتهم لما حدث أثناء التجسد والصلب والقيامة. فقد تعلموا أنهم عندما يتلامسون مع الابن المتجسد، فإنهم في حقيقة الأمر يتلامسون مع الآب والروح القدس.

ولقد تمسكت الكنيسة الجامعة بهذه القاعدة الرسولية في صراعها ضد الأريوسية التي نادت أولاً بأن الآب خالق والابن مخلوق، ثم تطرفت بعد أن حكم عليها المجمع المسكوني، فانتهت إلى أن الروح القدس مخلوقٌ أيضاً.

ولقد كانت قدرة الآباء على الدفاع عن الإيمان الأرثوذكسي مصدرها **أن الثالوث لا يمكن تقسيمه حسب الجوهر إلى خالق ومخلوق**، وهو أمر نلاحظه بكل دقة في المعمودية التي تتم باسم الآب والابن والروح القدس. فهي لا يمكن أن تتم باسم الآب الخالق والابن المخلوق. وهنا نلاحظ بكل دقة كيف شرح الآباء، ليس فقط وحدة جوهر الثالوث وعدم تقسيم جوهره، وإنما أيضاً وحدة عمل الأقانيم، فالمعمودية واحدة، لأن الذي يعطيها هو الرب الواحد الذي يعمل كل الأشياء "**الآب بالابن في الروح القدس**".

فالقاعدة الرسولية التي أرساها الآباء الرسل، وشرحها آباء الكنيسة الجامعة لا تسمح لنا مطلقاً بأن نتكلم عن عمل من أعمال الأقانيم دون أن يكون من الواضح أن الأقنومين الآخرين يشتركان فيه.

من هنا، يصبح الكلام عن مواهب الروح القدس، وتحديدها بأنها مواهب الروح القدس، هو خطأ عقيدي يجب التراجع عنه، فالروح لا يعمل فينا منفرداً ومن أجل ذاته، وإنما هو يعمل فينا لكي يقودنا إلى الابن ولكي يقودنا الابن إلى الآب. الثالوث هو الذي يعمل فينا، ولا يجوز مطلقاً أن نفصل عمل الآب عن عمل الابن أو عمل الابن عن عمل الروح القدس. ولنأخذ مثلاً واضحاً، لا يمكن لأحدٍ مهما كانت فصاحته

وقدرته العقلية أن يجادل فيه: يقول الرسول بولس "وبما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً أبا أيها الآب" (غل ٤: ٤). فالروح الذي يعطينا التبني هو روح الابن وهو روح الآب أيضاً (يوحنا ١٥: ٢٦) ولكن عطية التبني هي من الابن، فهو الذي أعطانا سلطاناً أن نكون أبناء الله (يوحنا ١: ١٢-١٣). وطبعاً إذا كانت العطية هي التبني فهي أيضاً من الآب. أو حسب شرح الآباء هي من الآب بالابن في الروح القدس. فهل هذه عطية أقنوم الابن فقط أم هي عطية الابن لكي ينال الإنسان التبني ويصبح ابناً للآب؟ وهذا هو ما يجعل الرسول يختم كلامه السابق في غلاطية "إذاً لست بعد عبداً بل ابناً، وإن كنت ابناً فوارث لله بالمسيح" (غل ٤: ٢٧).

وهناك مثال آخر يفوق ما قدمناه بسبب بساطته ووضوحه، وهو أصغر وأهم طقوس الكنيسة أي رشم الصليب، الذي يدخل في كل الأسرار الكنسية ولا يوجد طقس واحد يمكن أن يمَارس بدون رشم الصليب والصيغة البسيطة في رشم الصليب، هي أصلاً صيغة التعميد، ولذلك فإن مَن يرشم الصليب ويقول باسم الآب والابن والروح القدس، فإنه يعود إلى اعتراف إيمانه بالثالوث الذي به نال المعمودية. لكن الصيغة الليتورجية الفخمة هي:

مبارك الله الآب ضابط الكل

مبارك الابن الوحيد يسوع المسيح ربنا

مبارك الروح القدس البارقليط

ومع كل صيغة من صيغ البركة الثلاث، يتم رشم الصليب، أي دعاء الثالوث، أقنوم الآب والابن والروح القدس ورشم الصليب باسم الآب وباسم الابن وباسم الروح القدس، وطبعاً لو كان فصل عمل الأقانيم ممكناً لما جاز لنا أن نضع اسم الآب واسم الروح القدس في رشم الصليب، ذلك أن الصليب هو عمل الابن فقط، ولكنه عمل الابن الذي قادنا إلى شركة مع الآب والروح القدس.

طبعاً يمكن مراجعة هذه القاعدة الطقسية على كلام الرسول بولس على (رومية ٦: ١-١١)، وهو شرح المعمودية التي هي موت – دفن – قيامة مع المسيح لكي يكون الإنسان حياً لله الآب بالروح القدس بسبب اشتراكه في الموت والقيامة مع المسيح المصلوب والقائم من بين الأموات.

هل يحل علينا الروح القدس وحده؟

إن الكلام السابق يرد على هذا السؤال رداً مباشراً، فالروح القدس لا يحل علينا وحده؛ **لأن حلول الروح القدس فقط يعني أن الابن الوحيد الذي شاركنا إنسانيتنا، قد انتهى عمله فينا بالقيامة وبالصعود، وهذا يقضي تماماً على دوره كوسيط نلجأ إليه.**

إنما الذي يحل فينا هو الثالوث، فالابن عندما تجسَّد جعل بتجسده فرصة حلول الروح القدس علينا ممكنة، لأنه حل عليه في الأردن ومسحه، وهو ما يعني أننا نحن الذين مُسحنا فيه، وبالتالي فبعد أن حل الروح

القدس علينا في الابن أو في الابن علينا، صار من الواضح أن كل كلام عن عمل أو حلول الروح القدس وحده هو خطأ عقيدي ظاهر لا يحتاج إلى برهان أو دليل؛ لأن حلول الروح القدس على الابن في الأردن تبعه حلول الروح القدس في يوم الخمسين والروح الذي يأتي من عند الآب إنما يسكبه الابن علينا (أعمال ٢).

فإذا كان الابن يهيئ الإنسانية بتجسده ومعموديته وموته وقيامته "كان الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد لأن يسوع لم يكن قد مجد بعد" (يوحنا ٧) فإن الكلام على الروح القدس يجب أن يفهم في إطار أن الروح سوف يعمل فينا لكي يكمِّل عمل الابن.

مثال واضح عند الانضمام إلى الكنيسة جسد المسيح "لأننا جميعاً بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد... وجميعنا سُقينا روحاً واحداً " (١ كورنثوس ١٢: ١٣). فالذي يضم الأعضاء الجدد إلى جسد المسيح الكنيسة هو الروح القدس، وهو الأمر الظاهر جداً حسب تدبير حياة المسيح نفسه.

+ لقد حل الروح القدس على العذراء، فوُلد منها الابن المتجسد.

+ وحل الروح القدس على المسيح في الأردن، فتأسست المسحة الإلهية، أي مسحة الروح القدس.

+ ومن الطقس الكنسي يحل الروح القدس على مياه المعمودية، لكي ننال شركة موت المسيح وقيامته.

+ ويحل الروح القدس على الخبز والخمر لكي ننال جسد الرب ودمه – فهل يمكن بعد كل هذا أن نتحدث عن مواهب الروح القدس فقط، دون أن يكون لدينا الحس الروحي الواضح بأن هذه المواهب هي بدورها مواهب الآب ومواهب الابن أيضاً.

مواهب الروح القدس التي تقودنا إلى الابن والآب

وردت تسمية مواهب الروح القدس مرةً واحدةً في الرسالة إلى العبرانيين ويهمنا أن نضع النص كله لكي نلاحظ أن العامل في هذه المواهب هو الآب والابن:

"كيف ننجو نحن أن أهملنا خلاصاً هذا مقداره قد ابتدأ الرب بالتكلم به، ثم تثبَّت لنا من الذين سمعوا شاهداً الله معهم بآيات وعجائب وقوات متنوعة ومواهب الروح القدس حسب إرادته" (عبرانيين ٢: ٣-٤).

ويمكننا أن نلاحظ أهمية الكلمات التالية:

– **خلاصاً:**– σωτηριας (راجع أعمال ٣: ٢٦)، فالخلاص ليس عملاً واحداً لأقنوم واحد دون الباقين.

– **الرب:**– والمقصود هنا الابن، فهو الذي تكلم به، أي أعلنه كما ورد في نفس الرسالة ١: ٢ (راجع لوقا ٢: ١٨ - أعمال ١٣: ٤٥ – ١٦: ١٤ – ١٧: ١٩).

– **شاهداً الله معهم:**– والمقصود هو الآب، فشهادة الآب هنا أساسية، فهو يؤكد لنا الخلاص باشتراكه المباشر في القيام بالآيات والمعجزات والقوات المتنوعة.

وأمّا بالنسبة لعبارة مواهب الروح القدس، فإنه يجب علينا أن نضع القاعدة اللغوية لفهم هذه العبارة فالرسول يقول:

"συναμεσιν κας πνευματος αγιον μερισμοις"

فالروح نفسه يوصف بأنه هو بذاته مصدر المواهب (١ كور ١٢: ٤ - ١ كور ١٢: ١١) وهو هنا الذي يحمل شهادة واضحة لإرسالية الابن ويشهد أيضاً لعمل الله الآب، وهو المقصود بكلمة حسب إرادته.

شهادة الليتورجية القبطية:

أولاً المعمودية:-

إن تقديس زيت الموعوظين يتم بعمل الثالوث حسب شهادة الطقس "أيها السيد الرب الإله ضابط الكل أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، نسأل ونتضرع إلى صلاحك يا محب البشر الوحيد الإله الحقيقي، وابنك الوحيد يسوع المسيح ربنا، والروح القدس، لكي تنظر إلى جبلتك، هذا الزيت - وتجعله أن يحل أعمال الشياطين .... وانقله ليكون زيت مسحة وموعظة لكي يجعل النفس مؤمنة بالمسيح يسوع ربنا".

والموعوظ نفسه، يتم إعداده من قبل الله الآب بالابن في الروح القدس "أنت دعوت عبيدك باسمك القدوس المبارك، اكتب أسمائهم في كتابك ... أعدَّهم هيكلاً لروحك القدوس بابنك الوحيد يسوع المسيح ربنا".

وتصل هذه الصياغة إلى جمالها حيث يتعلم الموعوظ أنه سوف ينال نعمة إلهية فائقة "اجعلهم مستحقين للنعمة التي تقدَّموا إليها لينالوا من روح قدسك، ويمتلئوا من قوتك الإلهية، ويكونوا متشبهين بابنك الوحيد ربنا يسوع المسيح صائرين واحداً معه".

وأخيراً، فإن الذي سوف يلد هؤلاء، هو الآب بالابن في الروح القدس "ولدهم مرة أخرى (ثانية) بحميم الميلاد الجديد ومغفرة الخطايا. أعدَّهم هيكلاً لروحك القدوس بابنك الوحيد يسوع المسيح ربنا".

ولكن هذا الإعداد لسكنى الروح القدس، أو لكي يكون المعمَّد هيكلاً للروح القدس يتم "باسم الابن الوحيد يسوع المسيح"، وهي الصيغة النهائية لطرد الشيطان التي تؤهل للاعتراف بالثالوث كما هو واضح. وتعبِّر الصلاة الخاصة بجحد الشيطان والاعتراف بالإيمان عن القاعدة الرسولية "لا يستطيع أحد أن يقول إن يسوع رب إلاّ بالروح القدس"، فتقول هذه الصلاة "أيها السيد مخلصنا محب البشر صانع الخيرات، أنت وحدك الذي يكمل لك هذا السر. أنت الذي تجثو لك كل ركبة ما في السماء وما على الأرض وما تحت الأرض. وبك يعترف كل لسان قائلاً إن الرب يسوع المسيح لمجد الله الآب ... أضيء عيون أفهامهم بنور المعرفة .. هيئ أنفسهم لكي يقبلوا روحك القدوس .. إذ تعدهم هيكلاً لروحك القدوس بمسرة أبيك الصالح والروح القدس".

وبعد ذلك تؤكد الصلوات أن المعمودية هي: النور – ختم المسيح – موهبة الروح القدس – الحُلة النورانية – لُباس الخلاص. وهي الأوصاف التي تقال قبل تقديس مياه المعمودية "أدع عبيدك إلى نورك الطاهر ... جدد ميلادهم بالحياة الأبدية ... إملائهم من قوة روحك القدوس بمعرفة مسيحك لكي لا يصيروا بعد أبناء الجسد، بل أبناء الملكوت بمسرة نعمة ابنك الوحيد يسوع المسيح ربنا".

تقديس المياه:—

تؤكد الصلاة أن الذي قدَّس المياه هو الابن الوحيد "ربنا يسوع المسيح الذي نزل إلى الأردن طهَّره". ولكن تقديس المياه يظهر جديداً ومن جديد في كل معمودية بقوة الروح القدس "أدخلنا أيها القادر ونجنا أيها القدوس. أرعد يا الله الآب الضابط الكل على هذه المياه [1] لكي بها وبروح قدسك تُجدِّد ميلاد عبيدك". فالمعجزات القديمة، وهي: خلق المياه – فيضان الماء من الصخرة – تحويل المياه المرة إلى حلوة – عبور البحر الأحمر – وعبور الأردن، هذه تظهر الآن حاضرة بحضور الروح القدس "أطَّلع أيها الجالس على الشاروبيم، أظهر وأنظر إلى جبلتك هذه أي هذا الماء. أمنحه نعمة الأردن والقوة والعزاء السماوي، وعند حلول روحك القدوس عليه هِبهُ بركة الأردن. أعطه قوة ليصير ماءً محيياً".

نتائج التغطيس كما يشرحها الطقس

خلعُ الإنسان العتيق ولبسُ الإنسان الجديد "الذي يتجدد مرة أخرى كصورة خالقه. ويضيء فيهم نور الحق من قبل الروح القدس. ويفوزوا بالحياة الأبدية والرجاء السعيد".

هذه هي شهادة الليتورجية، وهي شهادة فائقة وأساسية لأنها تؤكد أننا في طقسنا نتبع الآباء الرسل، لأننا أخذنا هذا الطقس من آباء الكنيسة الجامعة تلاميذ الرسل. وبعد كل هذا، فإن عمل الثالوث في المعمودية ظاهرٌ بوضوح، فكل شيء يأتي من الآب بالابن ويُوهب بالروح القدس.

ثانياً: رشومات الميرون

لقد أيقظ الله أذهاننا لكي نعيد تأكيد أهمية الـــ ٣٦ رشم من رشومات الميرون وهي في غاية الدقة والإتقان والوضوح.

فالجزء العلوي من الجسم:– النافوخ – الأنف – الفم – الأذنين — العينين. وهي تشمل ٨ رشومات يقال فيها "باسم الآب والابن والروح القدس مسحة نعمة الروح القدس آمين".

ونلاحظ هنا أنها حواس الفكر والشم والنطق والسمع والرؤية. ولذلك وهي أهم حواس الإنسان، فإنها تأخذ صيغة الدهن قبل صيغة التعميد، أي باسم الآب والابن والروح القدس. هذه الحواس تُدهن باسم

([1]) الرعد والنور من المظاهر التي صاحبت معمودية الابن في الأردن حسب شهادة التقليد السكندري والإنطاكي.

الثالوث لتنال مسحة نعمة الروح القدس. هذه إذن قوى النفس الأساسية التي تنال باسم الآب والابن والروح القدس المسحة، مثلما تُوهب شركة آلام المسيح وقيامته في المعمودية باسم الثالوث.

أمَّا الجزء السفلي وهو القلب، والبطن، الظهر، الصُلب. وعددها ٤ رشومات، وهي حواس وقوى النفس والجسد، ولذلك تؤهَّل للمجد وعدم الفساد، فتُدهن وتنال مسحة "عربون ملكوت السموات" أي ملك الآب والابن والروح القدس.

أمَّا الجانب الأيمن: وهو الذراع الذي يبدأ من الكتف حتى راحة اليد، فعدد رشوماته ٦ رشومات ويمثل الإرادة الإنسانية، فهي تأخذ "دهن شركة الحياة الأبدية غير المائتة وهي شركتنا في الثالوث".

والجانب الأيسر: وهو الذراع الأيسر وعدد رشوماته ٦ رشومات أيضاً، فقد وُصِفَت بأنها "مسحة مقدسة للمسيح إلهنا وختم لا ينحل". فالميرون هو سر الروح القدس وسكناه في النفس، ولكنه ماذا يعطي؟ إنه يعطي مسحة المسيح للإنسان المتردد الحائر الإرادة الذي أُنقذ من الشمال ورُدَّ إلى اليمين.

أمَّا الجانب السفلي الأيمن، وهو الرِّجل وتبدأ بمفصل الفخذ ويمثل حركة وحياة النفس والجسد، يأخذ ٦ رشومات "كمال نعمة الروح القدس ودرع الإيمان والحق". وهذا النص هام لأن الرِّجل تمثل القيام والثبات والسعي، وبالتالي فهي تنال كمال نعمة الروح القدس لكي تسعى في أثر المسيح والآب دائماً.

أمَّا الجانب السفلي الأيسر وهو ختام الرشومات، فيأخذ ٦ رشومات "أدهنك يا فلان بدهن مقدس باسم الآب والابن والروح القدس آمين" وهذا يعني أنه كما بدأ بالثالوث ينتهي أيضاً بالثالوث، وهذا هو نهاية الرشومات، وهو في الواقع عودة إلى صيغة التعميد. فهل نحن ننال في مسحة الميرون الروح القدس وحده؟

إن الجواب يأتينا من الطقس القبطي .. عربون ملكوت السموات .. شركة الحياة الأبدية .. مسحة مقدسة للمسيح إلهنا .. كمال نعمة الروح القدس .. حتى سر الميرون، أليس هو شركة في الآب والابن في الروح القدس؟

ثالثاً: الثالوث في القداس

يمثل القداس الإلهي الكثافة الروحية والعقائدية للأرثوذكسية، حتى أنه قيل إن كل ما هو أصيل في الكنيسة موجود في القداس، عقيدةً وصلواتٍ وطقساً. ومن هذه الزاوية بالذات يمكننا أن نرى كيف يمثل القداس اللقاء الحق بين الكنيسة والثالوث. فعلى قمة الرئاسة الروحية نجد – كما يعبِّر تحليل الخدام – الثالوث، الاثنى عشر رسولاً ثم آباء الكنيسة. ويظهر هذا بكل وضوح في افتتاحية القداس الإلهي "المجد والإكرام للثالوث القدوس". فالمجد الإلهي الحاضر في الكنيسة هو الذي يجعل كل شيء من الثالوث وعائد إليه.

إن النعمة الإلهية النابعة من الله توهب في هذا السر الذي تشترك الكنيسة في ترتيبه، أي بوضع التقدمة أو الصعيدة على المذبح لكي تتحول بالنعمة وتأخذ معها – إلى الثالوث – الكنيسة كلها. وبالصلاة والتسبيح،

ثم بحلول الروح القدس، وبالتناول تعود الكنيسة إلى الله متحدة كأعضاء جسد واحد، وهو جسد المسيح الذي به تعود إلى الآب بواسطة الروح القدس. وهذه الرحلة السرية تتم في هذا السر الفائق على هذا النحو:-

- الله الآب أرسل ابنه الوحيد متجسِّداً من العذراء، فيهيئ للآب إنسانية جديدة بالموت والقيامة.

- الله الروح القدس يأتي ويحل على هذه الإنسانية الجديدة التي رأسها المسيح ويأخذها ويضمها إلى الرأس برابطة روحية فائقة، هي عمل الروح القدس الذي يجعل الأعضاء الجدد تلتصق بالرأس وتأخذ منه الحياة الجديدة.

- الله الابن يأخذ هذه الإنسانية الجديدة ويقدِّمها للآب لكي تنال الوحدة الداخلية على مثال وحدة الثالوث وتدخل السموات وتظل هناك حتى ترى هذه الوحدة وتشبع من السمائيات وتنال قوة القيامة وخيرات الدهر الآتي عندما تشترك في الإفخارستيا.

هذه الرحلة السرية لا تتم عبر مراحل منفصلة، وإنما تتم عبر الاحتفال الطقسي الذي لا يوزِّع العمل على الأقانيم، وإنما يظهر عمل كل أقنوم من أقانيم الثالوث حسب تدبير الله نفسه.

الاستعداد بالروح القدس

ويمكننا أن ترى ذلك من الأدب الروحي الرفيع الذي يعبِّر عنه القداس الباسيلي والذي يصل إلى ذروته في القداس الكيرلسي. فالذبيحة أو الصعيدة، رغم أنها وصية الرب نفسه "هذا اصنعوه لذكري"، ورغم أنها تحت سلطان الكنيسة، إلاَّ أنها لا تُقدَّم بجسارة الاقتحام، وإنما في اتضاع. فغاية الإفخارستيا هي الشكر، وهذا يعني - بكل دقة - أننا نأخذ شيئاً ليس هو حقاً خالصاً لنا أو تحت سيطرتنا، ولذلك يطلب الكاهن قوة الروح القدس "امنحني أن أجد نعمة ورحمة في هذه الساعة وأرسل لي قوة من العلاء لكي ابتدئ وأهيئ وأكمِّل كما يرضيك خدمتك المقدسة" (صلاة الاستعداد في القداس الباسيلي). وقوة العلاء هنا هي وعد الرب لتلاميذه قبل الصعود "أقيموا في أورشليم حتى تُلبسوا قوة من الأعالي" (أعمال ١) وهو ما يؤكده الكاهن بعد ذلك بقول أكثر وضوحاً في صلاة سرية بعد الصلاة السابقة "أنت يا سيدنا اجعلنا مستوجبين بقوة روحك القدوس أن نكمل هذه الخدمة"، فالكاهن يطلب الاستحقاق من الروح القدس "يا رب لا تردني ذليلاً مخزياً، بل أرسل عليَّ نعمة روحك القدوس واجعلني مستحقاً أن أقف أمام مذبحك المقدس" (صلاة الاستعداد في القداس الغريغوري).

أمَّا قمة التعبير اللاهوتي والعمق الروحي، فهو في صلاة الاستعداد في القداس الكيرلسي "أعطني يا رب روحك القدوس النار غير الهيولية التي لا يُفكر فيها، التي تأكل كل الضعيفات وتحرق الموجودات الرديئة"، فالكلام هنا يفوق كل كلام آخر، لأن نار الروح القدس لا تحرق الإنسان، وإنما تحرق كل ما هو مضاد لله وتنقي الإنسان من كل عمل رديء وتطهِّره جسداً وروحاً، فالطهارة الجسدية النابعة من الروح القدس تبقى وتدوم في الجسد والنفس.

الصعيدة التي نقربها للآب والابن والروح القدس

القداس هو حياة الابن المتجسد الذي هو رأس الكنيسة، والذي – بسبب هذه العلاقة الكيانية – تقدِّمه الكنيسة للآب بالروح القدس، ولكي نفهم هذه الحقيقة علينا أن ننتبه إلى صورتين أساسيتين يكمنان خلف هبة المسيح إلى الآب بواسطة الكنيسة:

– **الصورة الأولى:** المسيح عريس الكنيسة ورأسها الذي تزوَّجها ووهبها أن تنال فيه ميراثه السماوي وأدخلها بسبب الدعوة والاختيار والزواج إلى ميراث الآب.

– **الصورة الثانية:** المسيح رئيس الكهنة والوسيط في آن واحد، فهو يقف شفيعاً ووسيطاً بين الله والكنيسة.

هاتان هما في الواقع القدمان اللتان تسعى بهما الكنيسة إلى الآب، وبهما يمكن أن نتجاسر ونقول: "نورك الحقيقي ابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا وملكنا كلنا يسوع المسيح هذا الذي مِن قِبَله نشكر ونقرب لك معه مع الروح القدس الثالوث المساوي غير المفترق هذه الذبيحة الناطقة وهذه الخدمة غير الدموية" (صلاة مستحق وعادل – القداس الكيرلسي).

إن الجدل العقيدي الذي دار في الغرب وعلى أرض اللاهوت اللاتيني، قد أفسد مذاق السر عندنا، وأفسد قدرتنا على التمييز الروحي الدقيق. فالكنيسة تقدم هذه الصعيدة، بل وحتى الكنائس التي تنكر كل المعاني الروحية للإفخارستيا تشعر بأنها لابد وأن تجتمع وأن تحضِّر الخبز والخمر. لقد كانت وصية الرب لنا أن نجتمع وأن نأتي نحن بالخبز والخمر كتقدمة أو صعيدة. "في آداب المحبة، لابد وان يعبر كل طرف للآخر عن رغبته في الألفة وفي عناق المحبة" وهذا هو ما تجد الكنيسة انه لازم وضروري. فهي تبدأ، أو لذلك هي تبدأ بالوصية وتعيد كلام الرب نفسه في ليلة العشاء الأخير.

لكن النقطة الحاسمة هي تضحية العريس واختياره للعروس التي هي أصلاً مأخوذة منه، من لحمه وعظامه حسب قصة الخلق في سفر التكوين. وهنا نجد أن الكنيسة المأخوذة من آدم الثاني في سر المعمودية والتي اغتسلت وتطهَّرت بالدم والماء النابع من جنبه وتكوَّنت مثل حواء من ضلع آدم، هذه الكنيسة تقترب من عريسها في الإفخارستيا لكي يتم الاتحاد الروحي الكامل، أي اتحاد الجماعة كلها بالمسيح.

لقد خَلَقَ المسيحُ كل عضو على حدة، وجدده وجعله على صورته المجيدة أي صورة البنوة، ولكنه الآن يريد أن يضم الجماعة كلها في وحدة عجيبة ويجعلها جسده الواحد. وطبعاً إن وجود المسيح في كل مسيحي هو سبب إمكانية اتحاد كل مسيحي بالمسيح وبكل مسيحي آخر، فالاتحاد حياة ولا يمكن أن يعطي الحياة غير مصدر الحياة ربنا يسوع المسيح. وطبعاً وحسب تعبير القداس "كَمُلَ السر" حتى جمع المسيح أعضاء جسده وشدها بالمفاصل والرُّبُط وأعطى لها الوحدة والتآزر النابع منه هو أي الروح القدس. فالمسيح الكائن في كل إنسان هو سبب اتحاد كل إنسان به إذ لا يجمع المسيح بالمؤمنين غير المسيح والروح القدس. وهذا هو سر

اجتماع الكنيسة في يوم القيامة أي يوم الأحد أو يوم الرب، فهو اليوم الذي جُددت فيه الإنسانية من الموت ونالت فيه عطية الروح القدس.

هذه الزيجة المقدسة الفائقة، وهذا السر العظيم الذي جعل المسيح والكنيسة جسداً واحداً، هو سر جسارة الكنيسة في أن نقول لله الآب "نقرب لك قرابينك من الذي لك" (الباسيلي)، و"لكي أكمِّل هذا القربان الموضوع الذي هو سر جميع الأسرار بصحبة وشركة مسيحك". وفي استدعاء الروح القدس في القداس الكيرلسي "أنت الذي وضعنا أمام مجدك القدوس قرابينك مما لك يا أبانا القدوس ... أرسل إلى أسفل من علوك المقدس ومن مسكنك المستعد (المهيَّأ) ومن حضنك غير المحصور ومن عرش مملكة مجدك الباراقليط روحك القدوس الكائن بالأقنوم .. علينا وعلى هذه القرابين التي لك المكرمة السابق وضعها أمامك".

فالكنيسة تقدم لله الآب ما يخص الآب، وما يقدسه الآب بالروح القدس، وهذه هي لغة الزيجة السرية المقدسة، لأنها تملك عريسها ولا تستطيع أن تقول غير ذلك. هذه اللغة الإلهية الفائقة تكشف عن جانب جوهري، وهو أن الصعيدة هي صعيدة الكنيسة، وهي في نفس الوقت صعيدة الآب أيضاً التي وهبها الآب للكنيسة "املأ هذه الصعيدة التي لك يا رب بالبركة من قبل حلول روحك القدوس ... قرابينك هذه المكرمة التي سبق وضعها أمامك، هذا الخبز وهذه الكأس؛ لأن ابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح في الليلة التي اسلم ذاته فيها .."، فالكنيسة عندما تتحدث مع الآب فيما يعرف بقداسات الآب تكلمه عما عمله الابن وتسأل عطية الروح القدس.

ففي هذه القداسات بالذات يُوصف سر الإفخارستيا بأنه سر الآب رغم انه سر جسد ودم ربنا يسوع المسيح الذي هو وحده تجسَّد. وهذا هو ما تؤكده صلاة الشكر المدونة بمقدمة القسمة في القداس الباسيلي والكيرلسي "وأيضاً فلنشكر **الله الآب ضابط الكل** أبا ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح لأنه جعلنا أهلاً أن نقف في هذا الموضع المقدس ونرفع أيدينا إلى فوق ونخدم اسمه القدوس، هو أيضاً فنسأله أن يجعلنا مستحقين لشركة ولإصعاد أسراره الإلهية غير المائتة". ولئلا نخطئ في التعرُّف نكمل الصلاة "الجسد المقدس والدم الكريم اللذين **لمسيحه** الضابط الكل الرب إلهنا". كذلك الأمر أيضاً في صلاة الخضوع في القداس الباسيلي "نشكرك أيها **الآب ضابط الكل** لأن رحمتك عظيمة علينا إذ أعددت لنا ما تشتهي الملائكة أن تطلع عليه ... إذ طهرتنا كلنا تؤلفنا بك (توحدنا بك) من جهة تناولنا من **أسرارك** الإلهية".

وفي القداس الغريغوري في صلاة الشكر الأخيرة بعد التناول "نشكرك يا **أبانا القدوس** خالق الكل ورازق الجميع الذي أعطانا من هذا الطعام المقدس غير المائت والسري". وأمَّا القداس الكيرلسي – وهو يعيد رؤيا أشعياء إلى الأذهان – فيخاطب الآب: "أعطنا هذه الجمرة الحقيقية المُعطية الحياة للنفس والجسد التي هي الجسد المقدس والدم الكريم اللذان **لمسيحك**".

فالحقيقة الأساسية هي أن الابن المتجسد قد أعادنا إلى حضن الآب بواسطة زواجه السري الإلهي بنا في عروسه الكنيسة. وهذا الحضن يوصف أيضاً "بالمسكن المستعد (المهيأ)"، فلقد صار سُكنى الفرحين في الله،

هؤلاء لا يدخلون بدون اتحاد الزيجة الذي جعل آدم الجديد وحواء الجديدة جسداً واحداً وفتح الطريق السماوي للكنيسة.

وحتى في القداس الغريغوري المعروف بقداس الابن والذي توجِّه فيه الكنيسة صلاتها للابن الإله الوحيد، فهو كرأس الكنيسة وعريسها تقول له الكنيسة: "نقرب لك قرابينك من الذي لك" أنها تستطيع أن تتقدم للمسيح الإله وتقدم له ما سبق وقدَّمه هو أي الذي لك أي جسده الذي سُلِّم سرياً في هذا السر الفائق.

إن هذه الزيجة الإلهية هي التي أعطت هذه الدالة وهذه الثقة، فقد وهبَ الربُ ذاته لكنيسته وصارت هذه الهبة هي طريق دخول الكنيسة إلى الآب "فما من أحد يبغض جسده بل يغذيه ويعتني به اعتناء المسيح بالكنيسة. ونحن أعضاء جسد المسيح من لحمه ومن عظامه ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويتحد بامرأته فيصير الاثنان جسداً واحداً هذا السر عظيم وأعني بالسر المسيح والكنيسة" (افسس ٥: ٢٣-٣٢). فالكنيسة تطلب حياةً وتمسك بعهد الزواج وهو الإفخارستيا، وتدخل إلى السماء عينها لكي ترى العريس والآب.

وإذا بحثنا عن سر اهتمام العهد الجديد بتأكيد أن عطية الروح القدس هي هبة الله الآب وعطيته للكنيسة، فإننا لا نجد أفضل من الزيجة الإلهية كسبب يجعلنا وارثين لله ووارثين للميراث السماوي، فالزوجة تدخل في ميراث رجلها وتتمتع به، وهو ملخص كل قصص العهد القديم عن الزواج والأولاد والبركة، الذي صاغ القداسات الشرقية على النحو الذي نعرفه، والذي يتمثل في وجود الستائر حول المذبح وعلى باب الهيكل؛ لأننا نعيش في خيمة إبراهيم، ليس فقط كغرباء في العالم، ولكن أيضاً في بركة الله لإبراهيم التي وصلت إلى كمالها في المسيح الذي يهب لنا كل شيء في جسده ودمه. هذا عن الصورة الأولى.

أمَّا بالنسبة للصورة الثانية:

فهي الوساطة ورئاسة الكهنوت التي لربنا يسوع المسيح. فقد صارت هذه الرئاسة هي مصدر خدمة القداس حسب شرح ديوناسيوس الأريوباغي. فالكنيسة لا تستطيع أن تتقدم للآب بدون المسيح الإله الوحيد ورئيس الكهنة. وهنا علينا أن ندرك حقيقة هامة تغيب عن أذهاننا، وهي أن كل صلاة تقدم للآب، لا تعني أن الآب متفرج يراقب ويسمع صلوات الكنيسة، وإنما لأنه الآب، فهو مصدر كل الخيرات ومنه يأتي كل شيء. فكل صلاة تقدم للآب، إنما تعبِّر عن هذه الحقيقة الفائقة وهي أن الآب هو مصدر كل الأشياء، ولذلك وحتى في القداس الغريغوري الموجَّه للابن تؤكد الصلوات الخاصة قبل القسمة بأنه "الإله الوحيد الذي في حضن أبيه" هذا هو الذي يبارك ويقدس ويقسِّم كما بارك وقدَّس وقسَّم في ليلة العشاء الأخير.

إذن فحضور الثالوث في القداسات ظاهر وقوي، لأن غاية مجيء الابن وتجسده هي أن يعلمنا عن الآب وعن الروح القدس، وأن يعيد علاقتنا ويجددها على النحو الذي نراه في القداسات.

الفصل الثاني

الخلق من العدم

هو أساس الشركة في الطبيعة الإلهية

مقدمة

الخلق من العدم دعامة أساسية من دعائم الإيمان المسيحي، ولذلك فإن كل بداية عقائدية لا تهتدي بالخلق من العدم، لابد لها أن تقع في أخطار أو أخطاء عرفتها مدارس الفكر الوثني القديم، مثل الأفلاطونية، والأفلاطونية المحدثة والمانوية، والغنوسية، فالعالم بما فيه لم يُخلق من مادة أزلية ولا هو فيض إلهي من جوهر إلهي، وإنما هو لم يكن كائناً وبلا وجود بالمرة حتى خلقه الله.

وما يفصل العالم عن الله، ليس المسافة زادت أو قلت، وإنما الفاصل الحقيقي هو طبيعة الله وجوهره. فالله يحتضن العالم، وهو كائن في كل مكان ومع ذلك فهو بعيد عن العالم بطبيعته السامية الفائقة التي لا تجعل أي إمكانية للشبه بين طبيعة الله والكائنات المخلوقة بأسرها، بما فيها الإنسان.

حقيقةٌ هامةٌ وأساسية، وهي أن الله كائنٌ وحده، وهذه الكينونة الفائقة تجعل الله فوق الزمان والمكان والتحديدات الإنسانية. وإذا وضعنا في اعتبارنا صدق تعليم الآباء، بأن الزمان مخلوق، فإن الفرق بين الأبدية والزمان يصبح فرقاً بين الخالق والمخلوق، بين الطبيعة الإلهية الكائنة بطبيعتها وبين المخلوقات التي وجودها أمراً عرضياً وزمانياً يمكن أن ينتهي، حيث لا تحمل قدرة ذاتية على البقاء والدوام، وإنما هي كائنة بإرادة الخالق.

وحسب لغة العصر الوسيط: "الله واجب الوجود"، وهو وحده الذي يتمتع بهذه الصفة الطبيعية التي تنتمي إلى صفات الطبيعة الإلهية، أمَّا باقي الموجودات فهي ليست كذلك، فهي يمكن أن تتلاشى إذ ليس لها قدرة ذاتية على البقاء. فالله واجب الوجود، أو بلغة الكتاب المقدس هو الكائن الذي وحده يملك أن يقول "أنا" أمَّا باقي الكائنات التي تنطق بالأنا فقد نالت هذه النعمة من الله.

إذن الخلق من العدم يحدد لنا طبيعة النعمة الإلهية، فهي عمل الله الذي ينتمي إلى الطبيعة الإلهية الواجبة الوجود أو الكائنة دائماً. فالنعمة الإلهية ليست عملاً ينتمي إلى الطبيعة المخلوقة الآتية من العدم، وإنما هي هبة إلهية غير مخلوقة. فالإرادة الإلهية وكل القوى الإلهية لا تنتمي إلى الطبائع المخلوقة بالمرة، فهي حسب تعليم الآباء "النعمة غير المخلوقة" وحسب تعبير العهد القديم (الترجمة السبعينية) "السموات والأرض وكل ما فيها تجعلك تدرك أن الله خلق الأشياء مما لم يكن" (٢ مكابيين ٧: ٨)، وبالدقة اللغوية اليونانية "مما لم يكن" εκ ουκ οντων لأن ουκ هي سلب مطلق، و οντων كائن أو موجود، وهو نفس التعبير في القداس الغريغوري "مما لم يكن كونت الإنسان".

مِن هنا نرى بكل وضوح أن الإنسان – بنوع خاص – وسائر المخلوقات الأخرى لا تستطيع أن تعيش وأن تبقى بدون الخالق. وهنا نرى أن الفرق بين الفلسفة اليونانية والكتاب المقدس هو أن الفلسفة تقبل μηον أي ما ليس له كيان، وإنما تكوَّن من مادة أولية كائنة قبل تدخُّل الخالق، أمَّا الكتاب المقدس فيستعمل كلمة ουκ ον των فهي قاطعة لا تعطي فرصة للتفكير في مادة أولية أو غيرها.

فالمادة الأولية تحمل صورة صدور أو فيض *emanation* من الذات الإلهية وبذلك يصبح العالم بمثابة إله آخر أقل نسبياً من الخالق. هذه الفكرة الشائعة في الهند تراها في الغنوسية، وهي لذلك من أخطر الأفكار التي تهدد تعليم النعمة في المسيحية، فالنعمة هبة للمخلوق من العدم، أمَّا في حالة الصدور والفيض يصبح العالم – بما فيه الإنسان – في غير حاجة إلى النعمة، ولا يحتاج إلى تدخل الله فهو يحمل كل إمكانيات الحياة والبقاء ويمكنه أن يصارع في سبيل عودته إلى ما كان عليه. وإذا سقط يمكنه بقدراته الذاتية أن يصارع في سبيل الخلاص، وأن يخلص في النهاية، فالفكرة المسيحية الأساسية هي أن العالم المخلوق من العدم لا يملك شيئاً من الله، فهو آخر غير الله، هو مخلوق وليس فيه أي عنصر من عناصر الألوهة، إنه ليس كائناً موازياً لله، كما لو كان إلهاً آخر أو الله وقد تكاثر وصار اثنين، الإله الخالق الكائن والإله المخلوق الصادر عن الله. فهذه الصورة غريبة وبعيدة عن المسيحية.

الخلقُ إذن في حد ذاته نعمةٌ إلهيةٌ. فقد جاد الله على الكائنات بالوجود، وهذا هو الصلاح الإلهي الذي يصفه القديس أثناسيوس في تجسد الكلمة بأن الله "لا يضن بنعمة الوجود على أحد". وهذه الحقيقة تلعب دوراً أساسياً في التحديد المسيحي الأرثوذكسي "للشر"، فهو ليس من خلق الله، وإنما هو انحرافٌ اخترعته الخليقة نفسها.

مما سبق يظهر لنا بكل وضوح أن الوحيد المولود والصادر عن جوهر الله هو أقنوم الابن وأقنوم الروح القدس، أمَّا باقي المخلوقات فهي كائنة بإرادة الله. لقد دار صراع الآباء مع الأريوسية حول ضرورة التمييز بين جوهر الله وبين الخليقة على أساس أن ما يصدر عن طبيعة الله هو بالضرورة يحمل كل صفات الله، وأمَّا ما يخلقه الله بإرادته فهو لا يشارك الله في أيٍ من صفاته.

لقد كانت الأريوسية تريد أن تقول إن الله خلق الابن بإرادته، وإن الابن ليس من جوهره، بل هو كائنٌ بالإرادة. ولكن الآباء وعلى رأسهم أثناسيوس أكدوا أن الفرق بين الخالق والمخلوق هو فرقٌ بين الطبيعة الإلهية الأزلية التي لا تتغير، وبين ما يتم في الزمان بواسطة الإرادة ولا ينتمي إلى الطبيعة الإلهية الأزلية، فهو عمل يقع تماماً خارج الطبيعة الإلهية مغايرٌ تماماً للجوهر الإلهي. ومن هنا يصبح الفرق بين الابن الأزلي والمخلوقات هو فرق بين جوهر اللاهوت الأبدي والطبيعة المخلوقة.

وسوف نعود إلى هذه النقطة الهامة عندما نناقش الفرق بين المسيح والمؤمنين بالمسيح [1]. فالمخلوقات

([1]) راجع الملحق في نهاية هذه الدراسة.

ليست مساوية لجوهر اللاهوت.

على أن الفرق الأساسي ليس فقط فرق بين الأبدية والزمان، بل هناك عدة فروق هامة لا مجال لدراستها هنا، ولكن أهمها هو:-

+ إن الطبيعة المخلوقة قابلة للتغيير، وذلك من حيث النمو الفكري بالنسبة للكائنات العاقلة، والنمو في التكوين والبنية بالنسبة للكائنات الحية.

+ إن الطبيعة المخلوقة لا تملك أي صفة من الصفات الخاصة بها، وإنما كل صفاتها منحة من الخالق وهي تخضع لهذا التكوين ولا تملك أن تكتسب أي شيء من الصفات إلاّ بما يمنحه الله حسب خطة الخلق نفسها.

+ إن الطبيعة المخلوقة قابلة للانحلال، بل هي بطبيعتها لا تملك قدرةً على البقاء، ولا تستطيع بإرادتها البقاء، حتى أن شاءت البقاء، وإنما هي تبقى بإرادة الخالق الذي بالنعمة يدعِّم بقائها، فهي عارضة وزائلة وتبقى فقط مادام الله قد شاء لها البقاء.

هذه النقاط الثلاثة السابقة، هي أهم ما يميز التعليم المسيحي الخاص بالخلق من العدم، لكن علينا أن نؤكد **إن انعدام أي صلة نوعية بين الجوهر الإلهي، والطبائع المخلوقة هو في الواقع أساس احتياج الخليقة لله**. وهذه هي النقطة التي أبرزها جميع الآباء لا سيما آباء الإسكندرية وبشكل خاص أثناسيوس الرسولي وكيرلس عمود الدين. ولا يجب مطلقاً أن نقع في العدمية ***Nehelisim*** البوذية أو غيرها من الاتجاهات التي تصور الكون كما لو كان شيئاً بعيداً منعزلاً عن الله، ولا يمكن أن يشترك في خيرات الله، فالحقيقة المسيحية كما يصورها القديس أثناسيوس الرسولي هي أن الكون خُلِقَ بهذا الشكل وعلى هذا النحو غير الثابت والمتغيِّر لكي ينال فيض النعمة الإلهية. ولأن هذه النقطة على قدر كبير من الأهمية، بات من اللازم أن ندرس هنا الفقرات الأساسية عند القديس أثناسيوس من كتابيه الرسالة إلى الوثنيين، وتجسد الكلمة.

أولاً: التعليم المسيحي كما شرحه القديس أثناسيوس الرسولي

يقول الرسول بولس "بالإيمان ندرك أن الله كوَّن العالمين بكلمة منه فصنع ما يرى مما لا يرى" (عب ١١: ٢). فكيف شرح أثناسيوس هذه الحقيقة الرسولية التي تؤكد أن الله هو الذي يدعو إلى الوجود ما هو غير موجود (رومية ٤: ١٧). فالخليقة حسب وصف أثناسيوس "زائلة وضعيفة وفانية إن كانت مكونة من نفسها فقط" (ضد الوثنيين ٤١: ٢). "ولكن الله سبق فرأى أن المخلوقات التي خلقت زائلة وعُرضة للانحلال وفق نواميسها، ولكي لا تنتهي إلى هذا المصير ولكي لا يتحطم الكون ويعود إلى العدم، لهذا فإنه خلق كل الأشياء بكلمته الأزلية وأعطى الخليقة وجوداً وكياناً، وعلى ذلك لم يترك الخليقة تواجه طبيعتها لئلا تطوح بها عاصفة وتتلاشى من الوجود مرة أخرى" (ضد الوثنيين ٤١: ٣).

إذن، فالخليقة زائلة – عُرضة للانحلال – ضعيفة – فانية.

فماذا فعل الله لكي يحفظ الخليقة من الزوال؟

"نظراً لصلاحه يقود الخليقة كلها وينظمها في هدوء بكلمته الذي هو نفسه أيضاً حتى بالتدبير والحفظ والنظام الذي هو عمل الكلمة تستنير الخليقة وتستقر آمنة على الدوام" (ضد الوثنيين ٤١: ٣).

وهنا يبدو أن القديس أثناسيوس الرسولي يعطي للكلمة دور الإشراف على النظام الكوني، ولكن هذا غير صحيح. فالمشكلة الأساسية ليست في وجود النظام الكوني، وإنما المشكلة هي أنه حتى مع وجود النظام الكوني، لا يمكن للخليقة أن تبقى. وهنا يبرز الفرق الأساسي بين الكتاب المقدس والفلسفة اليونانية التي ترى أن الخليقة تخضع لنظام دقيق وأن هذا النظام هو جزء من طبيعة المخلوقات، ولكن علينا هنا أن ندرك أن الكتاب المقدس لم يتعرض ولم يستخدم ولا مرة عبارة النظام أو القانون الكوني، وأنه في الواقع لم يدخل هذه الدائرة بالمرة، وإنما يعبر الكتاب المقدس عن علاقة الخليقة بالخالق على أنها اعتماد، وأن قوة الله الخالقة هي التي تحفظ الخليقة من العدم. وهو ما يؤكده أثناسيوس هنا وعموماً، فإن أثناسيوس – كمسيحي – يمكنه أن يقول إن الخليقة زائلة وعُرضة للانحلال حسب أو وفق نواميسها. أمّا تلاميذ المدارس اليونانية، فأنهم يفزعون لمجرد التفكير في هذا الأمر، ومن استخدام عبارات حادة مثل هذه العبارات. ولكن أثناسيوس يؤكد أن الخليقة "زائلة وضعيفة إذا كانت مكونة من نفسها فقط" وهي ترجمة مباشرة من الانجليزية *If composed of it self only* ويجب ترجمتها في ضوء النص اليوناني إلى "إذا كانت كائنة واعتمدت على ذاتها"، أي إذا كان وجودها راجعٌ إلى طبيعتها. ولذلك يستطرد أثناسيوس بعد ذلك مؤكداً أن المسألة ليست القوانين التي تحفظ الكون. ففي الواقع وحسب النظرة المسيحية الدقيقة لا توجد قوانين تحفظ الكون مطلقاً، وإنما الذي يُبقي على الخليقة كلها ما يؤكده القديس أثناسيوس بعد ذلك بوضوح وفي نفس الفصل "لأنها تشترك في الكلمة الذي له وجود حقيقي يأخذه من الآب، ولذلك تُعان بواسطة الكلمة لكي تستمر في البقاء لئلا يصيبها ما كان ممكناً أن يحدث لها لولا بقاؤها بواسطة الكلمة، أي لئلا يصيبها الانحلال (ضد الوثنيين ٤١: ٣).

فالخليقة تشترك في الكلمة وتنال قوة خاصة من الكلمة، أي أنها تستمر في البقاء بفضل تدخل الكلمة. ويختم أثناسيوس هذه الفقرة بالاقتباس المعروف من القديس بولس عن المسيح الكلمة الابن "صورة الله غير المنظور بكر كل خليقة، فإنه به وفيه الأشياء كائنة .." (كولوسي ١: ١٥: ١٨) (ضد الوثنيين ٤١: ٣).

ثانياً: كيف نفهم علاقة الكلمة بالكون أو الخليقة؟

يقول أثناسيوس "الكلمة .. الكلي القدرة .. إذا اتحد بالكون وكشف عن قواته في كل مكان وأنار الكل ما يرى وما لا يرى، وهو يمسكها كلها ويربطها بنفسه دون أن يترك شيئاً خالياً من قوته .. "(ضد الوثنيين ٤٢: ١).

واتحاد الكلمة بالكون يؤكده أثناسيوس على هذا النحو وبتشبيهات واضحة:

١ – تنازع القوى المخلوقة مثل النار والبرودة. هذا التنازع يجعل القوى المختلفة تخضع للكلمة وتطيعه.

٢ – هذا الضبط يشبه ضبط الموسيقي لأوتار القيثارة، وهذا يجعل الاتحاد هو حركة الكون نفسه التي تشبه أيضاً

الجوقة المكونة من أشخاص مختلفين، ولكن قائد الجوقة هو الذي يقود الأصوات المختلفة في تناسق.

٣- هذه الحركة المتناسقة أشبه بحركة الحواس الجسدية التي تضبطها النفس الواحدة، أو بحضور الحاكم في المدينة وانشغال كل فرد بتنفيذ أوامر الحاكم. وهكذا يؤكد أثناسيوس أن الخليقة كلها تطيع الخالق الحاضر دائماً فيها، وأنه بقوته يعمل على الاحتفاظ بها.

٤- وأثناسيوس لا يفسر حركة الأجرام السماوية والشمس والقمر وسائر المخلوقات على أنها حركة ذاتية، وإنما المحرك لكل هذه هو الكلمة "لأنه بإيماءة وبقوة كلمة الآب الإلهي الذي يدبر ويترأس على الكل. تدور السماء وتتحرك الكواكب والشمس تضيء .. والإنسان يتكون ويحيا ويموت، وكل الأشياء تحيا وتتحرك .. (ضد الوثنيين ٤٤: ١).

٥- فالنظام الكوني هو عمل اللوغوس، وهذا ما يعنيه أثناسيوس بالاتحاد؛ "لأن النظام أمرٌ يتفق مع قوة اللوغوس وحكمته، فالإنسان من سماعه الكلمة المنطوقة الإنسانية يدرك أنها صادرة عن قوة عاقلة في الإنسان، هكذا يدرك الإنسان من النظام الكوني أن الكلمة هو الحكمة والقوة الذي رتب الكون ومنحه نظاماً" (ضد الوثنيين ٤٦: ٧).

إذن، الكون يقوده اللوغوس ويمزج القوى التي فيه حسب إرادته وسلطانه دون أن تتعدى هذه القوى طبيعتها المخلوقة أو تتحول عن الحدود التي قررها اللوغوس. فالخليقة ليست خاضعة لقانون طبيعي، وإنما خاضعة لله الخالق، والقانون الطبيعي حسب المعنى المتعارف عليه في كتب العلوم والفلسفة منذ عصر النهضة الأوروبية هو قانون يحكم حياة الكون وسيره، وهو ليس من الضروري أن يكون من وضع الخالق فهو يفترض وجود قوة خلفه، ولكنه لا يشرح هذه القوة ولا يعلن عنها. وهذا يختلف تماماً عن كلام أثناسيوس وغيره من الآباء الذين لا يتحدثون عن قانون طبيعي. فالابن الكلمة هو الذي يقود بنفسه حركة الخليقة، وهذا ليس من خلال قانون طبيعي افترض الآباء وجوده، وإنما القانون الطبيعي هو عمل اللوغوس المباشر، هو حركة المايسترو الذي يقود سيمفونية الكون، وهذا وضع يختلف تماماً عن النظرة العلمية المعاصرة، لأن العلوم تدرس حركة الكائنات بأسرها دون أن تبحث عن الخالق، فهذا البحث يقع في مجال اللاهوت، وليس في مجال العلوم وكأننا هنا يجب أن ننتهي إلى حقيقة هامة وأساسية، هي :-

أولاً: إن الكون لا يحرك نفسه، وإنما ينال هذه الحركة كعمل إلهي دائم.

ثانياً: إن الخليقة لا تملك القدرة على الحياة والبقاء، وإنما تنال هذه القدرة من الله.

هذا يفتح لنا مجالاً مسيحياً وأرثوذكسياً لفهم خلق الإنسان بشكل سليم.

الفصل الثالث

خلق الإنسان من العدم على صورة الله

مقدمة

إذا كان الكلام عن الخليقة يخص الكون بشكل عام، فهو يخص الإنسان بشكل خاص، وما ينطبق على خلق الكون ينطبق على خلق الإنسان، مع فارق جوهري يجب إلاّ يغيب أبداً عن فكرنا، وهو أن الإنسان امتاز عن الكون بكونه قد خُلق على صورة الله ومثاله.

فالخلق من العدم يشرح لنا بكفاية ووضوح أن الإنسان جاء من لا شيء وأنه إذا وُصِف بأنه خلق على صورة الله، فواضح أنه نال نعمةً إلهيةً خاصة وغير عادية وُهِبت له ليكون مثال الله. هذه الحقيقة الفائقة لا يمكن أن تكون نابعة من العدم، ولا من الطبيعة المخلوقة من العدم، وإنما نابعة بشكل أساسي من انعكاس الكينونة الإلهية على الإنسان نفسه، وهو ما سنراه بكل وضوح عن القديس أثناسيوس في كتابه "تجسد الكلمة".

أولاً: صلاح الله هو مصدر نعمة الوجود

"لأن الله صالح أو بالحري هو بالضرورة مصدر الصلاح، والصالح لا يمكن أن يبخل بأي شيء، لذلك فإنه إذ لا يضن بنعمة الوجود على أي شيء، خلق كل الأشياء من العدم بكلمته يسوع المسيح ربنا" (تجسد الكلمة ٣: ٣).

الوجودُ نعمةٌ، وهو أمر يشرحه أثناسيوس بعد ذلك مؤكداً أن الإنسان الذي نال نعمة الوجود إذا ابتعد عن الله يمكن أن ينتهي إلى العدم والموت "إنهم كما نشأوا من العدم، كذلك يجب أن لا يتوقعوا إلاّ الفساد الذي يؤدي إلى العدم مع توالي الزمن" (تجسد الكلمة ٤: ٤).

فالعدم هو الحالة الطبيعية، أي حالة "عدم الوجود". هذا الوضع في الواقع يخص المخلوقات بأسرها، وهو ما يجعل أثناسيوس يقول بكل وضوح عن البشر "لأنهم أن كانوا بحضور الكلمة وتعطفه قد دُعوا إلى الوجود من الحالة الطبيعية الأولى، وهي عدم الوجود، فإنهم بطبيعة الحال متى تجردوا من معرفة الله عادوا إلى العدم" (تجسد الكلمة ٤: ٥).

ولماذا يصف أثناسيوس عدم الوجود أو العدم بـ"الحالة الطبيعية الأولى" التي هي خاصة بكل الكائنات. هي حالة الكيان المخلوق الذي لا يملك الوجود والبقاء؛ لأن الوجود والبقاء هو عمل الهي مباشر. ولذلك وفي أكثر من مرة يصف أثناسيوس الإنسان كما يلي:-

١- بالطبيعة فاسدون (قابلون للموت)   ٥: ١

٢- فانٍ بطبيعته ٦: ٤

٣- الحالة الطبيعية الأولى وهي حالة عدم الوجود ٤: ٥

٤- الفساد بالموت الذي كان يستحقه بالطبيعة ٣: ٤

٥- الفساد الذي كان طبيعةً له ٧: ٤

كل هذه التعبيرات تؤكد أن البقاء هو عمل الهي وتدخُّل الهي مباشر يؤكده أثناسيوس بتعبيرات أخرى هامة:

نعمة الشركة في اللوغوس

النعمة الأولى، أي نعمة الخلق من العدم لا تكفي لخلق الإنسان، وهنا يصل أثناسيوس إلى نقطة هامة تحتل مكاناً بارزاً في لاهوت الإسكندرية، وهي نعمة الشركة في الكلمة. ويؤكد أثناسيوس هذه الحقيقة الواضحة بعبارات قوية هامة "لم يكتف بمجرد خلقته للإنسان كما خلق باق المخلوقات غير العاقلة على الأرض، بل خلقه على صورته ومثاله وأعطاه نصيباً حتى في قوة كلمته لكي يستطيع، وله نوع من ظل الكلمة وقد خلق عاقلاً، أن يبقى في السعادة أبداً" (تجسد الكلمة ٣: ٣). فلكي يكون الإنسان فعلاً إنساناً كان لابد وأن يدعم خلقته بنعمة أعظم وهي حسب تعبير أثناسيوس في النص السابق والنصوص التالية، وهي:

١- أعطاه نصيباً في قوة كلمته ٣: ٣

٢- له نوع من ظل الكلمة ٣: ٣

٣- حضور الكلمة ٤: ٥

٤- وهبنا مجاناً بنعمة الكلمة حياة منسجمة مع الله ٥: ١

٥- حل الكلمة معهم ٥: ٢

هذه العبارات تكوِّن في مجموعها ما نعرفه باسم "صورة الله". وهذا الاسم في غاية الأهمية؛ لأنه يحدد لنا قاعدة الشركة، وهي شركة بدونها لا يمكن أن يكون الإنسان شيئاً.

ثانياً: الصورة الإلهية في الإنسان هي الشركة في الطبيعة الإلهية

في الفصل الثالث عشر يسأل أثناسيوس "ما هي الفائدة من خلقة الإنسان أصلاً على صورة الله؟ كان خيراً له لو أنه خُلِقَ على صورة البهائم العديمة النطق من أن يُخلق عاقلاً ناطقاً ثم يعيش بعد ذلك كالبهائم".

إن صورة الله هي سبب ومصدر العقل في الإنسان، وهذه الحقيقة يؤكدها أثناسيوس بدوره على هذا النحو "خلقه على صورته ومثاله، وأعطاه نصيباً حتى في قوة كلمته" (تجسد الكلمة ٣: ٣). وهنا يلجأ أثناسيوس إلى تشبيه واضح يحتاج إلى إعادة في الصياغة العربية "لكي يستطيع وله نوع من ظل الكلمة وقد خلق عاقلاً"

"So that having as it were a kind of reflection of the word, and being made rational" (3:3).

فما هو المقصود من هذه العبارات؟ يبدو أن أثناسيوس يرى في الإنسان مرآةً ينعكس عليها شعاع ونور الكلمة أو اللوغوس. وعندما ينعكس عليه هذا الشعاع يصبح الإنسان عاقلاً، أي أن العقل ليس مجرد قوة بشرية تنتمي إلى الطبيعة المادية أو المخلوقة من العدم، وإنما هو عملٌ إلهيٌ، ونعمةٌ يحددها أثناسيوس بأنها "نصيباً في قوة كلمته". ولكي يظهر المعنى الدقيق الواضح لهذه الكلمات علينا أن نراجع كتابات أثناسيوس نفسها، فهو يشرح نفسه بكل دقة ما هو معنى انعكاس اللوغوس؟

يقول أثناسيوس في المقالة الثانية ضد أريوس وهو يشرح معنى التعبير الرسولي "بكر كل خليقة" مؤكداً أن الابن ليس مثل المخلوقات من ذات الجوهر المخلوق، وإنما هو من ذات جوهر الآب، ويشرح هذا اللقب على هذا النحو: "وإنما لأن الكلمة عندما خلق كل المخلوقات فقد تنازل إلى الأشياء المخلوقة لكي تنال هذه الكائنات البقاء. فالكائنات لا تستطيع أن تحتمل طبيعة الكلمة الفائقة والممجدة التي هي طبيعة الآب أيضاً، لولا تنازله بمحبة الآب للبشر وأعانهم وأمسك بهم وأتى بهم إلى الوجود وبعد ذلك وبسبب تنازله الكلمة، صارت الخليقة ابناً فيه لكي يصبح في كل الأوضاع "بكر كل خليقة"، أي في الخلق، وفي مجيئه إلى العالم نفسه من اجل الجميع" (ضد الأريوسيين ٢: ٦٤).

لقد حدث تنازلٌ من جانب الكلمة، وهو تنازل جعل الكلمة يمسك بالخليقة. ويشرح أثناسيوس بعد ذلك هذا بدقة أكثر "الابن الوحيد وذات كلمة الله هو خالق وصانع كل الأشياء، لأنه "بحكمتك أنت خلقت كل الأشياء (مز ١٠٤: ٢٤ س) ولكن ما جاء من العدم إلى الوجود لا يبقى فقط موجوداً، بل يصبح أيضاً صالحاً، فسُرَّ الله أن يتنازل حكمته إلى المخلوقات لكي يطبع ختماً وشبهاً ***impress and semblance*** من صورته على الكل، فيشترك فيه كل واحد ويظهر أن كل بشر مخلوقٌ، هو حكيم ويعمل أعمالاً تليق بالله، وكما أن ابن الله هو الكلمة، فإن كلمتنا نحن هي صورة للابن الكلمة. وكما أنه هو الحكمة، فإن كلمتنا هي الحكمة التي غُرست فينا كصورة، فصارت لنا قوة معرفة وفكر، وبذلك صرنا نائلين من الحكمة الصانعة، وبها استطعنا أن نعرف أبيها "لأن الذي رأى الابن قد رأى الآب أيضاً" "ومن قبلني فقد قبل الآب الذي أرسلني" (يوحنا ٢: ٢٣ - متى ١٠: ٢٤) ولما كان لنا ختم الحكمة مطبوعاً ومخلوقاً فينا، فصار في الكل مصدر كل عمل إنساني، لذلك السبب عينه يقول الحكمة الحق والصانع عندما يتجسد ويأخذ من صورته "الرب خلقني أو أعماله" (أمثال ٨: ٢٢) فما يقوله الحكمة فينا هو ما يقوله الرب نفسه وكمن يخصه رغم أنه لم يخُلق، وإنما هو الخالق ولكن بسبب صورته التي خلقها في أعماله (المخلوقات) يقول هذه الكلمات عن نفسه" (ضد الأريوسيين ٢: ٧٨).

بعد ذلك يؤكد أثناسيوس أن الكلمة إنما جاء وتجسد لكي يمكن للبشر أن "يعاينوا خالقهم الكلمة وأن يعرفوا فيه الآب". فالحكمة فينا مصدرها الابن الحكمة، وهذا هو سر وجود عدد غفير من الحكماء أشارت

إلى وجودهم الأسفار الإلهية (سفر الحكمة ٦: ٢٤). ويجمع أثناسيوس بعد ذلك عدد من نصوص الكتاب المقدس لكي يؤكد عمل الحكمة في كل شيء (أمثال ١٤: ١٦/١٤: ٢٤ - الجامعة ٨: ١/٧: ١٠ - ابن سيراخ ١: ٩، ١٠).

ويقدم أثناسيوس بعد ذلك تشبيهاً آخراً يشرح به سر وجود الحكمة في الإنسان، وكيف صار الإنسان حكيماً: "لقد أراد ابن الملك، عندما رغب أبيه الملك في بناء مدينة أن يطبع اسمه على كل المنازل والمنشئات التي كانت تُبنى، لكي يعطي حصانةً أو مناعةً لكل ما هو كائن في المدينة عندما يرى الكل اسمه، ولكي ما يساعد الكل على أن يتذكره وان يتذكر أبيه. وإذا ما تم بناء المدينة، وسُئل عن المدينة وكيف بنيت فإنه سوف يجيب "لقد بُنيت محصنةً حسب إرادة أبي، ويتخيلني الكل في كل مبنى لأن اسمي مطبوع على كل بناء. وإذا قال ذلك فهو لا يعني بأن جوهره مخلوق، وإنما المخلوق هو ما طبع من اسمه (ضد الأريوسيين ٢: ٧٣).

وهنا يؤكد أثناسيوس بكل وضوح أن المخلوق هو ما طبع من الصورة، ويلجأ إلى أسلوب دقيق جداً للتمييز بين الابن والمخلوقات "فالابن خالق وصانع، أمَّا ما هو مطبوع في المخلوقات هو نسخة من الصورة" (ضد الأريوسيين ٢: ٨٠). وهنا نرى أن الاشتراك في الحكمة والنصيب في قوة الكلمة ليس سوى القوة والإدراك الذي فينا الذي يساعدنا على أن نعرف الآب من خلال اشتراكنا في الابن الكلمة أو اللوغوس. لقد تنازل الابن، وهو تنازل المحبة كما سبق وأكد أثناسيوس لكي تنال الكائنات صورته التي تُطبع في الكائنات وبذلك تنال الصلاح والحكمة، والإدراك، بل تصبح كلمتنا نحن صورة من الحكمة، فالإنسان ينطق عاقلاً أو يعقل ما ينطقه وهو ما يؤكد أنه فعلاً صورة الابن التي طُبعت في الخليقة. والقديس أثناسيوس مهتم جداً بأن يؤكد إلوهية المسيح، وأن جوهره ليس جوهر مخلوق، بل ذات جوهر الآب الخالق إلاَّ أن ذلك هو في حد ذاته وبكل وضوح هو السبب الأساسي الذي مكن الابن من أن يطبع صورة حكمته في الإنسان.

الحكمة غير المخلوق

لقد أرادت البدعة الأريوسية أن تفهم النص المشهور "الرب خلقني أول طريقه" (أمثال ٨: ٢٢) على انه بمثابة برهان صريح على أن الابن الحكمة مخلوق مثل المخلوقات التي خلقها الآب. ومع أن أمثال ٨: ٢٢ يجب أن يُفهم ويُقرأ في إطاره ومعناه العبراني، وهو "الرب قناني" إلاَّ أن معلمنا أثناسيوس لم يشأ أن يضيع وقته في الفروق اللغوية بين العبرانية واليونانية، أو النص العبراني في الترجمة السبعينية واعتبر أن النص يقول "الرب خلقني". وهكذا استغرق منه تفسير هذا النص معظم فقرات المقالة الثانية ضد أريوس مؤكداً على النحو الذي رأيناه في الفقرات السابقة أن الابن ليس مخلوقاً وإنما عندما اشترك في الخليقة وأعطاها صلاحه وقوة الإدراك والعقل، ثم جاء وتجسد واتحد بصورته التي سبق وطبعها في الخليقة، فقد قال إن "الرب خلقني" مشيراً إلى أنه اعتبر ما يخص الخليقة يخصه هو بالذات، وإن الابن يمكن أن يضم صوته إلى صوت الخليقة التي جاء لكي يجعلها ابناً للآب (ضد الأريوسيين ٢: ٦٤).

لكن النقطة الجديرة بالاهتمام هي:-

أولاً: إن أثناسيوس يرفض تماماً مبدأ صدور الكائنات من ذات الله، أو ما صار يعرف بنظرية الفيض التي مؤداها أن الكائنات تفيض من جوهر الله. وتمسك أثناسيوس بالتعليم الرسولي، وهو الخلق من العدم.

ثانياً: إن الخلق من العدم مع عطية الصورة الإلهية وهي التي تجد عرشها الإلهي في العقل الإنساني، هو مشاركة المخلوقات في الابن اللوغوس لكي تنال الإدراك وتتمكن عن طريق المشاركة أن تعرف خالقها بكل وضوح. هنا يجب أن نفهم بشكل حاسم ودقيق معنى رؤية الإنسان لله الآب من خلال الكلمة أو اللوغوس، ذلك أن هذه النقطة بالذات تحتاج إلى إيضاح كامل حتى لا تتشوه في خضم الأفكار والجدل الذي اجتاح الكنيسة منذ البدعة الأريوسية.

رؤيتنا لله لا تتم بوسائط مخلوقة

تنفرد المسيحية دون غيرها من الديانات بالتمسك بأن غاية خلق الإنسان هو التمتع برؤية الله. هذه الرؤيا تتم بواسطة الكائن المخلوق، فهو الذي يرى، ولكن النعمة تساعد على هذه الرؤيا، والوسائط التي تتدخل ليست وسائط مخلوقة بالمرة. فإذا كانت المساعدة أو النعمة التي ستقدم للإنسانية هي مساعدة مخلوقة أي تنتمي إلى الطبائع التي جاءت من العدم، فإن النتيجة ستكون أن الإنسان لم ير الله، وإنما رأى مخلوقاً ويبطل قول الرسول "سنراه كما هو" (١ يوحنا ٣: ٢).

لقد كانت غاية الخلق أن يعرف الإنسان خالقه، ولذلك وُهِبَ نصيباً في قوة اللوغوس وصار له ظل الكلمة، لكي يدرك الله. وهنا يضع أثناسيوس – بوضوح شديد – أساس العلاقة بالله على هذا النحو.

أولاً: إن معرفة الإنسان بالله لا تتم إلاَّ برؤية الله.

ثانياً: إن هذه الرؤية تعني تحوُّل في كيان الإنسان نفسه، وحسب تعبير القديس أثناسيوس، تجعله ينعطف ناحية الكلمة اللوغوس، ويتجدد بالانعطاف نحو الكلمة (الرسالة إلى الوثنيين ١: ٣).

ثالثاً: إن المعرفة والرؤية والتجديد الدائم في كيان الإنسان، هو بكل تأكيد الشركة في الطبيعة الإلهية.

هذه النقاط الثلاثة تشكل دعامة التعليم الشرقي الأرثوذكسي كله عن خلق الإنسان. ولذلك علينا أن نرتِّب النصوص من كتابات القديس أثناسيوس حسب النقاط الثلاثة التي ذكرناها.

معرفة الإنسان بالله هي رؤية الإنسان لله

"الله جابل الكل وملك الكل الذي يعلو على كل جوهر ويعجز البشر عن اكتشافه، نظراً لعظم صلاحه وسموه كل السمو، خلق – بكلمته يسوع المسيح مخلصنا – الجنس البشري على صورته، وكوَّن الإنسان قادراً على رؤية وإدراك الحقائق بواسطة هذه المشابهة لشخصه (الله)، مانحاً إياه أيضاً أن يدرك ويعرف حتى أزلية (الله)" (الرسالة إلى الوثنيين ٢: ٢).

فالخلق على صورة الله هو مشابهة الكيان الإنساني للكيان الإلهي، ولكن هذه المشابهة ليست إلاَّ

الشركة مع اللاهوت "إذ قد نال (الإنسان) نعمته التي وهبها إياه، ونال أيضاً قوة الله من كلمة الآب، استطاع عن يغتبط وتكون له شركة مع اللاهوت عائشاً حياة الخلود كاملةً ومباركةً بكل يقين" (الرسالة إلى الوثنيين ٢: ٢).

فالفكر البشري المخلوق لا يستطيع بقدراته المخلوقة أن يرى الله، وإنما ينال هذه الهبة بقوة خاصة، وهي قوة فكرية من اللوغوس نفسه "لأنه إذ لا يعيق معرفته للاهوت شيء، فإنه يحتفظ أيضاً أبداً – بطهارته – بصورة الآب، الله الكلمة الذي خُلِقَ هو نفسه على صورته. وأنه ليدهش إذ يتأمل في العناية الإلهية التي تمتد إلى الكون عن طريق اللوغوس مرتفعاً عن كل الأشياء الحسية والانفعالات الجسدية ومتصلاً بقوة عقله بالإلهيات وبالأشياء السماوية التي لا تُدرك بالعقل" (المرجع السابق ٢: ٢).

الرؤية تبدأ أصلاً بحركة في الصورة الإلهية، أي العقل الإنساني، ولكن هذه الحركة لا تقود العقل إلى رؤية الخليقة، بل إلى رؤية اللوغوس نفسه بشرط أن يظل العقل متسامياً عن الحسيات. "وإذ يرى الكلمة فإنه يرى فيه أيضاً أبا الكلمة، متلذذاً بالتأمل فيه ومكتسباً التجديد من الانعطاف نحوه" (المرجع السابق ٢: ٣).

ولقد كانت هذه هي حالة آدم الأول قبل السقوط "أول إنسان خُلق – الذي سُمي بالعبرانية آدم – كان عقله متجهاً نحو الله بحرية لا يعيقها الخجل، وكان يشارك القديسين في التأمل في الأمور التي يدركها العقل ... فإن طهارة النفس كافية في حد ذاتها للتأمل في الله كما يقول الرب "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (المرجع السابق ٢: ٤).

الإنسان يتأمل الله مباشرة عن طريق اللوغوس

يؤكد أثناسيوس أن كلامه صحيح جداً بتأكيد حقيقة السقوط والموت، فكيف سقط الإنسان، ومن أي مكانةٍ عالية انحط؟ "الإنسان الذي خُلق أولاً ... كان عقله مركزاً في الله ومداوماً على التأمل في الله" (الرسالة إلى الوثنيين ٣: ٣). هذا التأمل يسميه القديس أثناسيوس "التأمل في الأمور العقلية" (المرجع السابق ٤: ١)، فالنفس خُلقت "لكي ترى الله ولكي تستنير به" (المرجع السابق ٧: ٥). هذه الرؤية كانت هي القوة التي تحفظها في حياة الفضيلة، ولذلك عندما سقطت يقول أثناسيوس "تحولت وتناست أنها كانت على صورة الله الصالح، لم تعد بالقوة التي فيها ترى الله الكلمة الذي خُلقت على مثاله، ولكنها إذ ابتعدت عن نفسها (الصورة الإلهية) صارت تتوهم وتتخيل ما ليس له وجود" (المرجع السابق ٨: ١).

كانت الرؤية مثل مرآة، وكان شعاع اللوغوس يدخل في حياة الإنسان وفكره، وكانت هذه هي الشركة في اللاهوت، ولذلك عندما سقط الإنسان تغيَّر كيان الإنسان، فلم تعد له صلة باللاهوت، وبالتالي تأثَّر فكره "لأنها بالانهماك في الشهوات الجسدية – اخفت المرآة التي فيها والتي بها وحدها تستطيع رؤية صورة الآب، لذلك لم تعد ترى ما يجب أن تراه النفس، بل أصبحت لا ترى سوى الأشياء التي تقع في مجال الحواس" (المرجع السابق ٨: ٢).

فالتحوُّل في الفكر هو الذي أدى إلى تحول كيان الإنسان، لقد سقط الإنسان سقوطاً عقلياً يصفه

أثناسيوس "ذهن البشر قفز مبتعداً عن الله" (المرجع السابق ٩: ١).

التجرد من معرفة الله يعني التجرد من الحياة

"الله إذ خلق الإنسان وقصد أن يبقى في عدم فساد، أمَّا البشر فإذ احتقروا ورفضوا التأمل في الله واخترعوا ودبروا الشر لأنفسهم .. فقد استحقوا حكم الموت الذي سبق إنذارهم به، ومن ذلك الحين لم يبقوا بعد في الصورة التي خلقوا عليها، بل فسدوا حسبما أرادوا لأنفسهم وساد عليهم الموت" (تجسد الكلمة ٤: ٤).

"متى تجردوا من معرفة الله عادوا إلى العدم" (تجسد الكلمة ٤: ٥). إذن، فالاحتفاظ بالصورة هو تأمل الإنسان العقلي الدائم. هذا التأمل لا يتم إلاَّ بواسطة اشتراك الإنسان في الطبيعة الإلهية، وهنا علينا أن نرى أن أثناسيوس يؤكد حقيقتين:

الأولى: إن الله هو وحده الكائن الواجب الوجود.

الثانية: إن الإنسان يستطيع أن يقول إنه كائن وموجود إذا استمر في الشركة مع الله. فالبشر "يستمدون وجودهم من الله الكائن" (تجسد الكلمة ٤: ٥) "الإنسان إذ خلق من العدم فإنه فانٍ بطبيعته، على أنه بفضل خلقته على صورة الله الكائن، كان ممكناً أن ينجو من الفساد الطبيعي (انحلال الطبيعة المخلوقة) ويبقى في عدم فساد لو أنه احتفظ بتلك الصورة بإبقاء الله في معرفته" (تجسد الكلمة ٤: ٦).

فالكينونة، أو الوجود خاص بالله فقط، وهو وحده الذي له قدرة البقاء بالقدرات والصفات الجوهرية الإلهية. أمَّا الإنسان، فإن وجوده وبقاؤه مُستمَد من الله وقائم بشكل خاص على أساس أن يظل على صورة الله، أو حسب تعبير أثناسيوس نفسه أن يصبح مثل الله، أي في عدم فساد "كان ممكناً أن ينجو من الفساد الطبيعي (الانحلال الخاص بالطبيعة المخلوقة من العدم) ويبقى في عدم فساد لو أنه احتفظ بتلك الصورة بإبقاء الله في معرفته، كما تقول الحكمة "حفظ الشرائع تحقيق عدم البلى" (حكمة ٦: ١٩) ولكنه إذ كان في عدم فساد كان ممكناً أن يعيش كالله منذ ذلك الوقت وإلى هذا يشير الكتاب المقدس على الأرجح عندما يقول "أنا قلت أنكم آلهة وبنوا العلي كلكم، لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون" (تجسد الكلمة ٤: ٦).

فالقديس أثناسيوس يؤكد على أن الإنسان – بالمعرفة والحياة النابعة من الله – وُهِبَ امكانية التشبه بالله أو أن يكون على مثال الله، وهو لذلك يقتبس نص مزمور ٨٢: ٧٢٦ "أنا قلت أنكم آلهة"، فليست الألوهة في الإنسان أمراً عارضاً، بل هي النعمة الآتية من الله، وهو ما يؤكده أثناسيوس في إصراره الشديد على خلق الإنسان من العدم "لأن الله لم يكتف بأن يخلقنا من العدم، ولكنه وهبنا مجاناً بنعمة الكلمة حياة منسجمة مع الله. ولكن البشر إذ رفضوا الأمور الأبدية وتحولوا إلى الأمور الفاسدة بمشورة الشيطان صاروا سبباً لفساد أنفسهم بالموت، لأنهم بالطبيعة فاسدون، ولكنهم تعينوا للخلاص من حالتهم الطبيعية بنعمة اشتراكهم في الكلمة" (تجسد الكلمة ٥: ١).

فالكينونة لا معنى لها بدون معرفة الله، كما أن معرفة الله ليست أمراً قائماً في الخيال البشري، بل هي

جزء من مكونات الطبيعة الإنسانية أي صورة الله، وبالتالي فإن ما نراه هنا عند أثناسيوس هو تحليل دقيق للطبيعة الإنسانية: فهي آتية من العدم، ولكنها ترتفع فوق العدم بالحياة المنسجمة مع الله، وبالتالي هي لا تعيش بقدراتها، وإنما بحلول الكلمة وسكناه فيهم (تجسد الكلمة ٥: ٢).

تجرد الإنسان من معرفته لله يعني تحوله من الحياة إلى الموت

التحول في حياة الإنسان من الحياة إلى الموت، جاء بسبب التحول في معرفة الإنسان بالله. هذا التحول في المعرفة لم يكن على مستوى مجرد التفكير كما نظن، ولكنه كان تحولاً في كيان الإنسان ذاته، وقد جاء هذا التحول على النحو الآتي:

أولاً: فقد الإنسان رؤيته لله ولم يعد – بعد تحول طبيعته – قادراً على رؤية الله.

ثانياً: فقد الإنسان سُكنى الكلمة واشتراكه في الحياة الإلهية، فسقط في قبضة الموت، وهذا – عند الآباء جميعاً وعند أثناسيوس – يحدث بطريقتين:

(أ) الموت الطبيعي، وهو الانحلال الطبيعي الذي يصيب الكائن؛ لأن الله هو وحده الذي لا يمكن أن تنحل طبيعته.

(ب) الموت الذي جاء بسبب التعدي، وهو لم يحدث كنتيجة طبيعية، وإنما كعقاب على العصيان، أو بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم. وعندما تم ذلك بدأ البشر يموتون وساد عليهم الفساد. ومن ذلك الوقت فصاعداً، صار له سلطان على الجنس البشري أكثر من سلطانه الطبيعي؛ لأنه أتى نتيجة لتهديد الله في حال عصيان الوصية (تجسد الكلمة ٥: ٢، راجع أيضاً ٨: ٢).

وطبعاً، إن العلاقة بين فقدان الرؤية، وتحول الكيان الإنساني إلى الموت، وعدم سكنى الكلمة هو في الواقع موضوع واحد لا يمكن فصل أي عنصر من عناصره ذلك أن النقطة الجوهرية كما يشرحها أثناسيوس نفسه، حتى أنه يضم هذه العناصر معاً في نص واحد: "لو كان الأمر مجرد خطأ بسيط ارتكبه الإنسان ولم يتبعه الفساد، فقد تكون التوبة كافية، أمَّا الآن وقد علمنا أن الإنسان بمجرد التعدي، انحرف في تيار الفساد الذي أصبح طبيعةً له، وحُرِمَ من تلك النعمة التي سبق أن أعطيت له، وهي مماثلة صورة الله. فما هي الخطوة التالية التي كان يستلزمها الأمر؟ أو مَن ذا الذي يستطيع أن يعيد إليه تلك النعمة ويرده إلى حالته الأولى إلاَّ كلمة الله الذي خلق كل شيء من العدم" (تجسد الكلمة ٧: ٤).

وهنا يطرح القديس أثناسيوس علينا العقدة اللاهوتية، وهي عدم كفاية التوبة. فالنقطة الأساسية كما بُحثت في القرون الوسطى هي موضوع عدم كفاية التوبة في مواجهة العدل الإلهي، فالتوبة لا تكفي لإرضاء ما يطلبه العدل، وهذا جزء من الحقيقة الكاملة، أمَّا الحقيقة الكاملة فهي كما يشرحها أثناسيوس نفسه في الفقرة التالية مباشرة "لهذا كان أمام كلمة الله مرة أخرى أن يأتي بالفاسد إلى عدم فساد وفي نفس الوقت أن يوفي مطلب الآب العادل المُطالب به الجميع. وحيث أنه هو كلمة الآب ويفوق الكل، فكان هو وحده الذي يليق

بطبيعته أن يجدد خلقة كل شيء، وان يتحمل الآلام عوضاً عن الجميع، وأن يكون نائباً عن الجميع لدى الآب" (تجسد الكلمة ٧: ٥).

وهنا يميز أثناسيوس بين عدة أمور في هذه الفقرة:

أ- تجديد الطبيعة الإنسانية التي فسدت.

ب- إيفاء مطلب العدل الإلهي.

جـ- أن يصبح الابن نائباً عن الجميع لدى الآب، وذلك لكي يستمر ويدوم عمل التجديد.

ثالثاً: الصورة الإلهية في الإنسان شركة في الابن والروح القدس

ما الذي نعنيه بقولنا إن الإنسان مخلوق على صورة الله ومثاله؟

إذا كان الإنسان مخلوق من العدم، فواضح أن الخلق من العدم لا يساعد الإنسان بالمرة على أن يكون صورة الله، وإنما نوال الإنسان نعمة إلهية من الله، هو الذي يمكّن الإنسانُ من أن يكون فعلاً كائناً، وحياً على صورة الله. لو كان الإنسان حياً بقدراته الطبيعية المخلوقة من العدم لجاز لنا أن نقول بكل وضوح إنه لا يحمل أي صفات تؤهله لمعرفة الله، وإنه لا يحمل بالمرة أي ملامح من خالقه. أي أنه مجرد كيان طبيعي لا يحتوي على أية عناصر للطبيعة الإلهية، أو حسب التسمية اللاهوتية الدقيقة "النعمة الإلهية".

ومنذ البداية يؤكد سفر التكوين أن آدم الأول نال الروح القدس بعدما خُلق أو حسب التسمية العبرانية القديمة "نسمة حياة". والاتجاهات الرئيسية في الفكر الإنساني عامةً، والديني بشكل خاص تفيد أن الإنسان يمكن أن يكون على أحد هذين الوضعين:

- إمَّا كائنٌ لا يملك إلاَّ القدرات والإمكانيات المخلوقة من العدم والتي لها حدود معروفة، وتقع في مجال القدرات الطبيعية بما فيها الفكر والإدراك.

- إمَّا كائنٌ يملك فعلاً القدرات والإمكانيات المخلوقة من العدم، ولكنها ترتفع فوق كل ما هو طبيعي ومخلوق بسبب اشتراك الإنسان في بعض القدرات الإلهية، ومن أهمها الحياة العقلية.

والاتجاه الأول: قاصرٌ على التدين الطبيعي، ويحصر الإنسان في مجال الطبيعة أو الكون فقط، ولا يرى في الدين سوى منظم لحياة الإنسان وعامل مساعد على تقدم الإنسان واحتفاظه بعلاقات أخلاقية فاضلة مع غيره من البشر. فالإنسان حتى بعد الموت لن يحظى إلاَّ باستمرار للحياة الكونية الطبيعية بما فيها من أكل وشرب وزواج وعمل، وقد ترسخ هذا الاتجاه وعبَّرت عنه الديانات الشرقية القديمة وفي مقدمتها الديانة المصرية بكل مدارسها الفكرية. وهذا الاتجاه يرى في الحياة والموت سلسلة متصلة ويعتبرها ظاهرة طبيعية، ولذلك تولد الحياة بعد الموت أي البعث والقيامة. ولولا أن هذه ظاهرة طبيعية لما اعتبر الإنسان القديم أن القيامة الطبيعية – أي استمرار الحياة الإنسانية كما هي – أمرٌ حتمي، ولذلك ناضل للاحتفاظ بالجسد سليماً

وعلى قدر الإمكان حتى يمكن أن تدخله الروح الإنسانية دون عناء. وحتى لا تضل الروح الطريق صنع الكثير من التماثيل الصغيرة التي تشبه الميت حتى تجد الروح الإنسانية الصورة الخاصة بها. وبالتأكيد فإن هذا الاتجاه الطبيعي لا يعرف شيئاً عن تعليم النعمة ولا يجد في الدين سوى الأخلاق الفاضلة فقط، ولا يهتم إلاّ بعلاقات الإنسان مع غيره، ولا يقدِّم عمقاً روحياً من أي نوع للعلاقة بين الله والإنسان.

أما الاتجاه الثاني: فهو لا ينكر مطلقاً حياة الإنسان الطبيعية وانتماء الإنسان إلى الكون والى التراب، ولكنه يفضِّل أن يرفع الإنسان فوق الطبيعة، فهو يؤكد أن الإنسان نال شرارةً إلهيةً سكنت فيه، وأنها قبسٌ من الحكمة الإلهية. ويرى أيضاً أن الإنسان قادر على إدراك خالقه لأن الخالق تنازل وأعطى الإنسان شركة قوية قائمة على علاقة روحية سامية، وهي الشركة في الطبيعة الإلهية. وإن الإنسان المخلوق من العدم إنما يرتفع إلى مرتبة سماوية فوق كافة حدود اللحم والدم ليصير ابناً لله. فما الذي يرفع الإنسان فوق اللحم والدم؟ إنها النعمة الإلهية وحضور الحياة الإلهية في الإنسان. والإنسان، لذلك سوف ينال - وبتدخل إلهي مباشر - نعمة الحياة الأبدية والقيامة من الموت.

فالكون لا يسير حسب قوانين طبيعية عمياء، وإنما الذي يقود الكون هو اللوغوس أو الابن الكلمة. والذي يرفع الإنسان إلى مشاهدة خالقه هو الله نفسه؛ لأن العقل البشري غير قادر بالمرة على مشاهدة الله أو التطلع إليه.

والاتجاه الثاني لا يرى في الموت والحياة ظاهرة طبيعية من ظواهر الكون. فالموتُ تعدٍّ على الطبيعة المخلوقة، والحياةُ هبةٌ من الله. ولذلك فالإنسان الذي يموت ويحيا، إنما يموت بسبب انقطاع علاقته بالله، ويحيا بسبب ارتباطه الشديد بالحياة الإلهية. ولذلك عندما مات الإنسان عجز عن أن يعود إلى الحياة مرةً ثانيةً، ولذلك احتاج إلى مخلص وفاد يرفع عنه الموت. فالحياة ليست ظاهرة كونية طبيعية مستمدة من قوى الكون؛ لأنها لو كانت كذلك لما احتاج الإنسان إلى مخلص وإلى تدخُّل إلهي. كذلك، فإن الموت ليس نتيجةً طبيعيةً لضعف الحياة وشيخوختها، وإنما هو انحلالٌ أصاب الطبيعةَ بسبب ابتعادها عن الله. ولو كانت الحياة الإنسانية مستمدة من الكون، فمن أين جاء بها الكون؟ وما هو مصدر الحياة في الكون؟ ولو كانت الحياة الإنسانية مستمدة من الكون لتعذَّر على الإنسان أن يُدرك خالقه برؤية باطنية روحية، ولأصبح الإنسان في مستوى الحيوانات والجمادات يتحرك فكره حسب قوانين طبيعية دقيقة وصارمة لا تعطي له قدرة على الحرية أو حتى الخيال، ولكن الإنسان كشف في حياته العقلية من حرية وخيال لا حدود له، فقد أظهر أنه لا يتحرك مثل حركة الأجرام السماوية أو النباتات أو غيرها من الكائنات التي لا حياة عقلية فيها.

رابعاً: الاختلاف على عقيدة خلق الإنسان من العدم

قد يبدو أن هذا العنوان غريب ومتناقض مع حقائق كثيرة نعرفها، فالديانات منذ فجر الحضارة الإنسانية تؤمن بأن الإنسان خُلق من العدم - رغم اختلاف القصص - وإنه نشأ على هذه الحياة الأرضية بقوة إلهية خالقة - تختلف الديانات بأسرها على تحديدها - وأنه على نحوٍ ما عصى ربه وسقط أو طرد أو أُنزل من

مرتبة إلى أخرى أقل كثيراً، وفي هذا أيضاً تختلف القصص.

ولكن ولكي نكون على بينةٍ من كل شيء، ولكي ندرك أن كل ما نعرفه من قصص أو أساطير عن خلق الإنسان، إنما هو لا يتعدى الاتجاهين السابقين اللذين اشرنا إليهما في مقدمة هذا الفصل. فالخلق من العدم حقيقة تبدأ عندها اختلاف الطرق اللاهوتية. والخلق من العدم هو قاعدة كل تديُّنٍ سليم. وكل نظرة إنسانية عبر تاريخ الحضارة الإنسانية، إنما بدأت من الخلق من العدم واتجهت بعد ذلك إلى وجهتها الخاصة بها.

لقد آمن الفراعنة وغيرهم بأن الخالق أو الآلهة أبدعت الإنسان من التراب، وسجل الكل في هذا المجال الكثير. ولكن نقطة البداية التي يلتقي عندها الكل هي بذاتها نقطة البداية التي يختلف على فهمها الكل، وهي بذاتها نقطة تفرع الاتجاهات اللاهوتية أو الدينية عبر التاريخ فكيف كان ذلك؟

إن قصة سفر التكوين تؤكد بوضوح أن الله "جبلَ الإنسانَ تراباً من الأرض" وهي تحدد بذلك أن الإنسان هو ابن الطبيعة، ويعود كيانه الإنساني إلى عناصر الطبيعة، ولكن القصة لا تقف عن هذه النقطة، وإنما تؤكد أن الله بعدما جبل آدم "نفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية" (تكوين ٢: ٧). هنا اختلفت المسيحية وجذورها القديمة في اليهودية (العهد القديم) عن غيرها من كافة الاتجاهات الدينية.

لقد تخيَّل البعضُ أن هذه النفخة هي النفس الإنسانية، وهم بذلك يريدون أن تصبح النفس هبة أو نفخة من الله، وإنها لذلك سامية وسمائية من حيث مصدرها الإلهي. وهذا فيه بعض الصحة، ولكنه ليس التعليم المسيحي الدقيق. فالنفس الإنسانية مهما كانت، ليست سوى عنصرٍ مخلوقٍ من العدم لم يَفِضْ به الله ولا صَدَرَ عن الكيان أو الجوهر الإلهي. هذا تعليم ترفضه المسيحية لأنه يتعارض بشكل واضح مع عدة نقاط عقائدية بالغة الأهمية. فهو:

أ- يتعارض مع نظرة المسيحية إلى الموت، فلو كانت النفس فاضت من الجوهر الإلهي لتعذَّر عليها في حالة العصيان والخطية أن تعاقَب؛ لأن الله لا يعاقب كياناً صَدَرَ منه، ولا يعاقب نفسه أيضاً. وإن كان سقوط الإنسان مؤكداً، فكيف يكون الله هو مصدر الشر والخطية؟ لقد سادت هذه النظرة مدارس الغنوسية وخدمت هدف الغنوسية الروحي، وهو تقسيم الكون، بل وتقسيم الخالق إلى عنصرين: عنصر الخير وعنصر الشر. ولَّما كانت النفس الإنسانية مصدرها الله، وقد عصت خالقها، بات من الواضح أن الذي زرع فيها بذور العصيان هو الإله الشرير عندما صدرت أو فاضت من إله الخير.

ب- وتتعارض هذه النظرة مع المسيحية الأرثوذكسية في مسألة هامة، وهي أن النفس سقطت وسقط معها الجسد. وإن الإنسان كله شمِلهُ الموتُ، ولذلك احتاج كيانه كله إلى التجديد وإلى حياةٍ جديدةٍ تُوهبَ من جديد. ولو صح القول بإن النفس الإنسانية صدرت من الكيان الإلهي، وإن النفخة هي النفس، لأصبح من الحتمي أن ننسب السقوط إلى الجسد فقط. ولو عُدنا إلى الأساطير القديمة التي ذاعت في العالم القديم لوجدناها تصوِّر النفسَ طاهرةً مستنيرةً نابعةً من الله حتى تتحد بالجسد فتسقط، وهذا يتعارض مع التعليم المسيحي

الخاص بالفداء؛ لأن الفداء هنا يكون خلاص النفس من مصدر الشر، أي الجسد وعدم احتياج النفس إلى معونة إلهية وتجديد يقوم به الخالق.

جـ- وأخيراً، لو كانت النفخة الإلهية هي النفس الإنسانية لأصبح من الضروري أن نحذف كل النصوص الإلهية في العهد الجديد بشكل خاص والتي تؤكد أن أعظم هبات الله للإنسان نفساً وجسداً هي هبة أو عطية الحياة الأبدية. فالنفس التي فاضت من الله تصبح فيها الحياة الأبدية شيئاً طبيعياً يعود إلى كيانها الإلهي الذي صدر عن الله، وبالتالي لا تحتاج مطلقاً إلى هذه الهبة؛ لأنها حتى في حالة عصيانها لله لا تفقد الحياة الأبدية. لقد كان آباء الإسكندرية يحاصرون الهراطقة دائماً في إطار تناقض الهراطقة مع أنفسهم ومع أفكارهم الخاصة.

وعلى هذا النحو، طالما أننا نتبع الآباء، نسأل:

لو كانت النفس هي النفخة الإلهية التي صدرت من فم الله، فماذا نفخ الله في أنف آدم الذي تكوَّن وخُلِقَ قبل النفخة؟ هل نفخ في أنف جثةٍ هامدةٍ بلا حياة؟ لو صح هذا القول لأصبح من الضروري أن تقول بأن الموت هو موت الجسد فقط، وأن عصيان النفس لله ليس هو مصدر موت الجسد، فقد خُلِقَ الجسدُ جثةً هامدةً منذ البدء، وأصبح من الضروري أن نقول إن موت الجسد لا علاقة له بالخطية، بل هو ظاهرة طبيعية.

ولو كانت النفخة الإلهية هي النفس الإنسانية، فواضح أنها – أي النفس – لم تُخلق من العدم، بل صدرت من فم الله، وهذا ما لا يقبله الإيمان المسيحي.

لو كانت النفس الإنسانية هي النفخة الإلهية التي صدرت من فم الله. أي أنها صدرت من فم الله بعد خَلق الجسد وبها عاش الجسد، فكيف نفهم سقوط الإنسان وعصيانه بعد أن حلَّت النفسُ في الجسد. إمَّا أن مصدر الموت هو النفس، وهذا يتعارض مع حقيقة صدورها من الله، وإمَّا أن الجسد هو مصدر الموت، وهذا يعني أن ما هو طبيعي ومخلوق من العدم قادر على أن يميت ما هو إلهي.

لذلك، فإنه لا يجب أن نتوقف كثيراً أمام هذه الفكرة غير المسيحية؛ لأنها لا تنسجم مع أي نظرة شاملة للعقائد المسيحية.

خامساً: هل يمكن أن يكون الإنسان مخلوقاً على صورة الله بدون نعمة إلهية؟

يبدو أن الإجابة على هذا السؤال بالذات تكشف لنا بشكل حقيقي عن اختلاف النظرة المسيحية إلى الإنسان عن تلك النظرات الأخرى التي تكونت قبل وبعد المسيحية. فالإنسان إذ خُلق فعلاً على صورة الله وكمثاله لا يمكن أن يرتقي ويحيا كصورة الله بدون النعمة الإلهية. ولذلك نال آدم منذ البداية الروح القدس، فهو روح الحياة أو نسمة الحياة التي نفخها الله في آدم، فصار آدم نفساً حية أو كائناً حياً.

ونلاحظ أن فعل "خَلَقَ" استُخدم بشكل واضح في الكلام عن خلق الإنسان، أمَّا فعل "نَفَخَ" أي وهب أو نفخ أي أعطى، فقد استخدم للإشارة إلى العطية الفائقة التي تؤهِّل الإنسان لأن يحيا حسب الصورة الإلهية. هذه العطية الفائقة التي تؤهِّل الإنسان لأن يحيا حسب الصورة لا يمكن – كما ذكرنا – أن تكون من

القوى الطبيعية التي خُلقت من العدم، فلا يؤهِّل الإنسان لأن يكون على صورة الله سوى الله نفسه، ولا يمنح الإنسان قوة حياة وتشبُّه بالله غير الخالق، فهو وحده الذي يملك أن يعطي هذه العطية الإلهية.

علينا إذن أن نقف أمام هذه النقطة الهامة طويلاً ونسأل أنفسنا: هل يمكن للإنسان أن يتشبه بالله بدون الله؟ الجواب بالنفي القاطع. فإذا كانت غاية الإنسان أن يتشبه بالله، فهذا يعني أن تكون بين الإنسان والله علاقة كيانية، وأن يكون لدى الإنسان رؤية واضحة لله الذي يتشبه به وإلاَّ استحال الكلام عن التشبه بالله.

غير أن المنطق الروحي يتجاوز الحدود العقلية التي نحاول إبرازها، فهو يحتم علينا أن نرى بكل وضوح أن النقطة الأساسية هي غاية خلق الإنسان نفسه، فهو مخلوق لأجل الله وكائنٌ بالله، وبالتالي لا يستقيم أي فهم سليم للإنسان إلاَّ إذا كان الإنسان الأول قد نال هبةً فائقةً تعلو على حدود اللحم والدم لكي تؤهله هذه الهبة لأن يعرف الله، وإلاَّ صارت كل معرفة الإنسان بالله نابعة، بل ومحصورة في إطار ما هو مخلوق. وما هو مخلوق هو غير الله بالمرة. فإمَّا أن ينفذ الإنسان إلى العالم أو المحيط أو المجال الإلهي، وإمَّا أن يظل في قيود الطبيعة وحتمية قوانينها، وهو ما يعني في النهاية أن يفقد الإدراك والرؤية الروحية.

إننا هنا أمام الاتجاهين السابقين، وهما هنا يصلان إلى غايتهما. فغاية الاتجاه الأول أن يظل الإنسان حياً في إطار الكون ابناً للطبيعة، ولذلك لم يحصل على أي شيء الهي. وأمَّا غاية الاتجاه الثاني فهو أن يصل الإنسان إلى الله ويحصل على شركة معه.

سادساً: معيار الحقيقة في قصص الخلق

دون أن نتعب القارئ في مناقشة التفاصيل الكثيرة التي شاعت في العشرة الآلاف سنة الماضية، ودون بحث الصياغات والعبارات ومصادر هذه القصص علينا أن نتوقف برهة لنسأل ما هو معيار الحقيقة في هذه القصص؟

أولاً: إنها جميعاً تشير إلى ما حدث في الماضي السحيق حيث لم يبق عندنا إلاَّ القصة التي يعجز الواقع الديني نفسه عن اختبارها. فما حدث في خلق آدم الأول ليس سوى مجرد قصة أو أكثر تشرح لنا كيف خُلق الإنسان. من هذه الزاوية، فكل القصص تاريخٌ قديم لا يربطه بالواقع والخبرة الدينية أي شيء، وبالتالي هو موضوع تاريخي لا يمكن أن نتدخل فيه بالرفض أو القبول سوى مجرد طاعة الضمير لما يحمله التراث الديني.

ثانياً: أمَّا قصة الكتاب المقدس، فهي رغم أنها سحيقة في القدم مثل القصص الأخرى، إلاَّ أنها تطرح على الوعي الإنساني مسألةً هامةً، وهي أن ما حدث في تكوين ٢: ٧ يُعاد بواسطة المسيح في يوحنا ٢٠: ٢٢ وهنا لا يكفي أن نعرف نسمة الحياة باسمها العبراني القديم والسحيق، وإنما بالاسم العبراني الآرامي اليوناني القديم والجديد "الروح القدس". فقد نفخ المسيح وقال "اقبلوا الروح القدس ..." (يو ٢٠: ٢٢). هذه النفخة القديمة تُعاد الآن بعد القيامة وبعد أن تطهَّرت الإنسانية من الموت لكي يرتفع الإنسان الحي بالمسيح إلى ما كان عليه

سابقاً، ويختبر في حياته فاعلية هذه النفخة عندما ينال من جديد الروح القدس الذي فقده آدم الأول بالخطية.

ثالثاً: لقد أكَّد العهد الجديد والآباء، ليس فقط وحدة العهدين القديم والجديد، وإنما ضرورة أن نبدأ من العهد الجديد لكي نفهم العهد القديم، أو حتى العكس أن نبدأ بالقديم ولكن نفسره في ضوء العهد الجديد، وبشكل خاص أن يصبح المسيح بتجسده وموته وقيامته وإلوهيته وانسكاب الروح القدس، المفتاح الوحيد لكي يفك كل الأسرار والرموز ويشرح هذه الوحدة الإلهية لكتاب يمتد من آدم الأول، من الخلق إلى آدم الثاني، أي إلى التجديد.

ولقد كان دأب الهراطقة جميعاً، لا سيما مدارس الغنوسية هو فصل العهدين والاكتفاء بقراءة العهد الجديد فقط أو حتى بعض أجزائه، مثل "مارقيان" الذي كان يرى أن العهد القديم لا ينتمي إلى العهد الجديد بل هو غريب عنه. هذا المنهج التعسفي قَلَبَ كل شيء في المسيحية ولم يُبقِ في الكنيسة أياً من اللذين رفضوا العهد القديم؛ لأن كل ما في المسيحية ثابت وراسخ على أساس الأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية في البناء كله.

فلماذا إذن وُهِبَ الروح القدس في العهد الجديد إذا لم يكن أصلاً هبة من هبات الله في الخلق الأول؟ لماذا استخدم العهد الجديد ذلك التعبير المحيِّر "تجديد الروح القدس"؟ ولماذا وُصِفَ الخلاصُ بأنه خلقٌ جديد، أو ولادة ثانية، أو ولادة جديدة؟ إن كل هذه الأسماء بلا معنى بدون الروح القدس. ولكن النقطة الحاسمة هي أنه من المستحيل أن يعطى للإنسان ما لم يكن قد سبق وأخذه في خلقه الأول؛ لأن التجديد ليس سوى تجديداً للقديم وإحياءً لما فُقِدَ وضاع، أو حسب التعبير الشرقي القديم "رد آدم وبنيه إلى رتبتهم الأولى". فهل كان في هذه الرتبة عملٌ إلهيٌّ، أي سكنى الروح القدس، أم أن الروح القدس الذي عَمِلَ جزئياً بعد ذلك في الأنبياء، يعمل جزئياً بعد سقوط الإنسان وطرده من الفردوس؟ أيهما أقرب من المنطق الروحي نفسه: أن تكون خطة الله أو التدبير هي أن يأخذ الإنسان الأول الروح القدس في النفخة الإلهية، ثم يفقد حلوله بسبب العصيان، ويكتفي الروح القدس بعمله الجزئي في الأنبياء، أم أن ينال الإنسان — بعد سقوطه — عمل الروح القدس الجزئي في الأنبياء كما لو كان نتيجة سقوطه؟ ... غريب هذا المنطق الذي لا يسير مع نفس الخط الواحد الممتد من التكوين إلى الرؤيا والذي يظهر فيه عمل الروح القدس منذ بداية استعلان الخلق "وكانت الأرض خربة وخالية ... وروح الله يرف على وجه المياه" (تكوين ١: ٢). فماذا كان يفعل الروح القدس على وجه المياه؟ أليس لكي يُعد كل شيء للحياة ويعلن مياه الحياة الآتية، أي مياه المعمودية؟

إن معيار الحقيقة هو أن كل أحداث الخلق تُختَبر في العهد الجديد وينال الإنسان في مياه المعمودية بدايته، تماماً مثل آدم الأول ويتجدد فيه الروح القدس ويحل بقوة عمل وساطة المسيح خالق الكل لذاته (كولوسي ١: ١٣-١٨).

إن معيار الحقيقة هنا أننا لسنا أمام حدث قديم ضارب بجذوره العتيقة في التاريخ، وإنما نحن أمام حقيقة تختبر وتعاش في المعمودية وفي الميرون. فالكون ما يزال كما خُلق، ولا زالت نفس العناصر التي وصفها سفر

التكوين حية باقية تؤدي دورها القديم والجديد في المسيحية. إذن، فالمعيار هو النعمة التي جعلت علاقة الإنسان بهذه العناصر تختلف عما كانت عليه. علينا أن ندرك هنا وبكل وضوح إن الإنسان لا يقرأ قصة عن خلق آدم الأول، وإنما يقرأ عن العطايا التي سوف ينالها. وهذا هو الفرق الجوهري بين قصص تُقال أو تُسمَع عن أمور لم تعد في متناول الخبرة. فهناك قصة وحيدة لا تزال متداخلة في إطار الخبرة الروحية في المسيحية الأرثوذكسية تجمع بين تكوين ٢: ٧ ويوحنا ٢٠: ٢٢ في حدثٍ واحدٍ دائم، وهو الخلق والخلاص. فالذي خُلِقَ، وهو أي إنسان في أي مكان أو زمان، هو الذي ينال التجديد.

سابعاً: هل الروح القدس هو نسمة الحياة؟

يبدو أن تعبير "نسمة حياة" وهو من التعبيرات القليلة في العهد القديم وينتمي إلى اللغة الشعرية العبرانية التي تقوم بتقديم تصور دقيق وديناميكي يشرح حقيقة العلاقة اللاهوتية بين الله والإنسان. وتعبير "نسمة" **נשמה** تعبير متعدد المعاني، فهو يعني الكائن الحي "وأمَّا مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما" (تثنية ٢٠: ١٦). ولكن إلى تكوين ٢: ٧ يعود السبب في الكلام عن استمرار الحياة على هذا النحو الذي تراه في سفر أيوب "حي هو الله الذي نزع حقي والقدير الذي أمر نفسي إنه ما دامت نسمتي فيَّ ونفخة الله في أنفي" (أيوب ٢٧: ٢-٣). فالله الحي هو الذي يهب الحياة لأن نسمة الحياة هي القوة الإلهية التي تهب الحياة، وهذا يؤكده سفر أيوب بالحديث عن قدرة الله الذي خلق السماء والأرض وكل ما فيها أن جعل الله قلبه على إنسان "أن جمع إلى نفسه روحه ونسمته، يسلم الروح كل بشر جميعاً ويعود الإنسان إلى التراب" (أيوب ٣٤: ١٣: ١٥). وهذا لا يختلف بالمرة عن صورة مماثلة في المزمور حيث يؤكد أن الخالق هو مصدر الحياة وهو الذي يعطي القوت لكل المحتاجين "تحجب وجهك فترتاع، تنزع أرواحها فتموت والى ترابها فتعود. ترسل روحك فيخلقون وتجدد وجه الأرض" (مز ١٠٤: ٢٩-٣٠).

أمَّا إذا جاءت بصيغة الجمع فواضح أن المقصود هو الكائنات الحية، ولذلك كلام الرب في (أشعياء ٥٧: ١٦) "النسمات التي خلقها" هو مثل (تثنية ٢٠: ١٦) أو مثل العبارة المشهور "كل نسمة فلتسبح اسم الرب" (مز ١٥٠: ٥).

فالنسمة هي هبة الحياة الآتية من الله. وهنا يجب أن نميز بين موضوعين أساسيين في الكتاب المقدس: الأول وهو عطية الروح القدس الذي وُهِبَ قبل السقوط، والثاني هو استمرار الحياة الإنسانية رغم السقوط وحكم الموت، وهو الذي جعل بقاء نسمة الحياة بشكل طبيعي، أي استمرار الحياة الإنسانية، بدوره عطيةً من عطايا الرحمة الإلهية. هكذا شرح الآباء لا سيما آباء الإسكندرية عطية الروح القدس في الخلق، ثم استمرار الحياة بعد السقوط ومفارقة الروح القدس للطبيعة الإنسانية.

الروح القدس هو نسمة الحياة:

لكي نبقى على الدوام "تابعين الآباء" علينا أن نستعرض في لمحة سريعة تفاسير الآباء لنص مزمور ٣٣:

٣ فهو من أهم مقاطع العهد القديم الذي يؤكد أن الروح القدس هو نسمة فم الرب. فحسب النص العبراني يقول المزمور "بكلمة الرب خلقت السموات وبنسمة فيه كل جنودها" فكيف شرح الآباء هذه الكلمات؟

أولاً: كلمة "نسمة" العبرانية هي كلمة "روح" في اليونانية. ولذلك يؤكد أثناسيوس الذي جمع كل النصوص الخاصة بالروح القدس في الكتاب المقدس بعهديه أن المقصود هنا هو الروح القدس "نعتبر أن عمل الثالوث هو عمل واحد. فالرسول لا يقصد إن ما يعطى، يعطى منفصلاً بواسطة كل أقنوم على حدة، بل إن ما يعطى إنما يعطى بالثالوث، لأن الكل من الله الواحد. ولذلك ليس في الله مخلوقات، بل الروح القدس واحد مع الابن، والابن واحد مع الآب، والروح القدس يمجَّد مع الآب والابن ويُعترَف به إلهاً مع اللوغوس، وهو يقوم بعمله في كل الأعمال التي يعملها الآب بالابن. ألا يعتبر كل مَن يدعو الروح القدس مخلوقاً مذنباً بالتجديف المباشر الموجه ضد الابن نفسه؟ لأنه لا يوجد شيء ما إلاّ وقد خُلق بواسطة الابن في الروح القدس. وهذا ما ترنم به المزمور "بكلمة الرب خلقت السموات وبنسمة (روح) فمه كل جنودها" (مز ٣٣: ٦) وفي المزمور ١٤٧ "يرسل كلمته فيذيبها ينفخ روحه فتسيل المياه" (١٤٧: ١٨) ..." (الرسالة الأولى إلى سرابيون: ٣١).

ويقول القديس باسيليوس عن الروح القدس "إنه الكائن الذي كان كائناً مع الآب وحاضراً مع الآب والابن قبل كل الأزمنة. وإذا استطعت أن تعبر بعقلك إلى ما قبل الأزمنة فأنك سوف ترى أن الروح قبل الأزمنة، بل هو يفوقها كلها. وإذا فكرت في الخليقة فإن القوات السمائية قد ثبتها الروح (مز ٣٣: ٦)" (الروح القدس: ٤٩).

ونفس هذه الحقيقة تظهر عند آباء آخرون يهمنا منهم بشكل خاص، القديس كيرلس السكندري (كتاب الثالوث ٧: ٦١٨، ص ١٠٤ من المجلد الثالث) ويقول القديس كيرلس بعد ذلك في الحوار السابع في شرحه لذات نص المزمور:

"(أ):- وأنا اسمع داود المبارك يرنم وهو يلمس قيثارته الروحية معلناً بكل وضوح "بكلمة الرب خلقت السموات وبنسمة فيه كل جنودها (مز ٣٣: ٦) اشرح لي من هو الذي يثبت السموات وكل القوات الله أم مخلوق؟

(ب):- في الله وحده كل القدرات والإمكانيات، ولن اقبل أن هناك مخلوقات لا تحتاج لله ويمكنها بقدراتها الخاصة أن تبقى كائنة وموجودة في السعادة لأن كل المخلوقات بالطبيعة تخضع للفساد.

(أ):- إذا كان الروح القدس هو الذي يثبت السموات فهو لا يفعل ذلك كمخلوق له قدرات وطبيعة مخلوقة، بل بإعطاء الخليقة قوته وهي ذات قوة الله .." (الحوار ٧: ٦٥٢ - المرجع السابق ص ٢٠٤-٢٠٥).

لقد شرح الآباء نسمة فم الرب على أنها الروح القدس، ولكن هل نسمة فم الرب أو حسب الترجمة السبعينية "روح فم الرب"، هي بذاتها نسمة الحياة أم أن هذا موضوع آخر؟

إن النصوص الواضحة التي تؤكد هذه الحقيقة في العهد القديم لا تحتاج إلى جهد كبير لإدراك أن

الروح القدس هو نسمة الحياة: "روح الله صنعني ونسمة القدير أحيتني" (أيوب ٣٣: ٤)، ولأن روح الرب هو الذي يهب الحياة، فهو الذي يجعل الإنسان حياً حياةً روحيةً تناسب حقيقة كيانه كصورة لله. ولذلك عودة النسمة إلى الله أو عودة الروح إلى الله هي اللغة التصويرية العبرانية التي تؤكد أن الله يأخذ عطية الحياة من الإنسان فيموت، ولذلك فإن سلطان الله الفائق يظهر في قدرة الله على أن يجمع نفس الإنسان ونسمته (أيوب ٣٤: ١٤-١٥) لأن عطية الحياة في الإنسان مصدرها الله وليس الإنسان (أشعياء ٢: ٢٢).

ولأن الرب نفخ في آدم نسمة حياة أي وهبه عطية حياة، كان من الضروري لنا أن نفهم أن "نفخة الرب" لم تكن حادثة عابرة، وإنما هي الحياة التي تعطى بغزارة. ولسوف نرى بعد ذلك هذه النفخة في يوحنا ٢٠: ٢٢، ولكن النقطة الأساسية هي قول أشعياء "نفخة الرب كنهر كبريت توقدها" (أش ٣٠: ٣٣). وهنا الوصف يتعدى الصورة اللغوية إلى حقيقة قدرة الله على الخلق والدينونة أيضاً، وتظهر هذه الصورة بكل وضوح في المزمور المشهور الذي يرى فيه داود سلطان الله: كيف يظهر أمام عينيه أعماق البحر وأسس المسكونة عندما يتحرك روحه ويزجر الطبيعة "ظهرت أعماق البحر وانكشفت أسس المسكونة من زجر الرب من نسمة ريح انفه" (٢ صموئيل ٢٢: ١٦ – مز ١٨ – ١٦). وهو ذات المعنى الذي يردده أيوب بعد ذلك "بنسمة الله يبيدون وبريح انفه يفنون" (أيوب ٤: ٩). فالنقطة الأساسية هنا هي أن نسمة الرب ونفخة الرب وريح أنفه لم يكن وصفاً خاصاً بسفر التكوين وخلق الإنسان، وإنما هو عمل الله الفائق الذي يظهر في الخلق وثبات السموات (مز ٣٣: ٦)، ثم في ظهور الله كديان للأرض وقدرته الخالقة التي تحول الماء إلى ثلج (أيوب ٣٧: ١٠)، وتَهب الإنسان الحكمة لأن روح الله هو روح الحكمة "لكن في الناس روحاً ونسمة القدير تعقلهم" (أيوب ٣٢: ٨) لأنه روح الله الخالق "روح الله صنعني ونسمة القدير أحيتني" (أيوب ٣٣: ٤).

تفسير آباء الإسكندرية لنص تكوين ٢: ٧

أشار سفر التكوين في إيجاز شديد إلى خلق الإنسان على صورته (تكوين ١: ٢٦). ثم بعد ذلك في شرح جوانب هذه العطية الفائقة إلى أن الله جبل آدم ووهبه نسمة حياة عندما نفخ في انفه نسمة حياة، فكيف فهم الآباء وبشكل خاص آباء الإسكندرية هذه الحقيقة؟

العلامة أوريجينوس:

أقدم شرح وصلنا في الكتاب الأول: فصل ٣ من كتاب المبادئ للعلامة أوريجينوس "ويعلمنا الإنجيل أيضاً أنه لا يوجد إنسان بلا شركة مع الله حسب كلام المخلص "ملكوت الله لا يأتي بمراقبة .. ملكوت الله داخلكم" (لو ١٧: ٢٠) ويجب أن نضيف: إذا كان معنى الكلمات لا ينطبق على ما كُتب في سفر التكوين "ونفخ في وجهه نسمة الحياة فصار الإنسان نفساً حية" (تكوين ٢: ٧)، فإذا فهمنا أن نسمة الحياة أعطيت بشكل عام للإنسان، إذن كل إنسان له شركة مع الله. ولكن إذا فهمنا أن تعبير نسمة الحياة يشير إلى الروح القدس، ويؤكد هذه الحقيقة أن آدم قد نطق بنبوات خاصة، إذن نسمة الحياة ليست عطية عامة لكل البشر، بل هبة خاصة للقديسين. وأخيراً في وقت الطوفان عندما فسد كل جسد (تك ٦: ١٢) كُتب أن الله قال عن

غير المستحقين من البشر الخطاة "لن يظل روحي في هؤلاء البشر إلى الأبد لأنهم جسد (تك ٦: ٣). وهنا من الواضح أن روح الله قد نُزع من غير المستحقين. ومكتوب أيضاً في المزامير "تنزع أرواحها فتموت ويعودون إلى الأرض، ترسل روحك فيخلقون وتجدد وجه الأرض" (مز ١٠٤: ٢٩-٣٠). ومن النصوص السابقة يتضح أن الروح القدس عندما ينزع من الخطاة وغير المستحقين، فإنهم يهلكون، ولكنه يخلق لنفسه شعباً جديداً" (فقرة ٦، ٧).

ويكمل العلامة أوريجينوس شرحه مباشرة في نفس الفقرة مؤكداً أن ما حدث في تكوين ٢: ٧ هو بذاته ما حدث في يوحنا ٢٠: ٢٢ "وبعد قيامة المخلص، عندما مضت الأشياء العتيقة وصار الكل جديداً (٢ كورنثوس ٥: ١٧) ولأن المخلص نفسه هو "الإنسان الجديد" "وباكورة الراقدين" (كولوسي ١: ١٨) قال للرسل الذين تجددوا بالإيمان بالقيامة "اقبلوا الروح القدس" (يوحنا ٢٠: ٢٢).

القديس مقاريوس المصري:

تُعد العظات الروحية من أهم الكتب التي دونت في الحياة النسكية، وهناك سؤال صريح ورد في العظة الثانية عشر:-

سؤال: ذكرت أن آدم فقد صورته السماوية، ولذلك هل كانت له الصورة السماوية بالشركة في الروح القدس؟

جواب: لو دام معه كلمة الله، لدامت معه كل الأشياء، فقد كان الكلمة ميراثه وملابسه ومجده الذي يحميه من كل شيء (أشعياء ٤: ٥) وكان الكلمة هو تعليمه وعلمه كيف يعطي أسماء لكل شيء...

سؤال: هل كان له شركة واختبار الروح القدس؟

جواب: بحضور الكلمة نفسه مع آدم، كان كل شيء بالنسبة له، سواء المعرفة أو الاختبار كما كان ميراثاً وتعليماً واستنارة .... فإن كان لآدم قبل السقوط مجد ظاهر وحاضر في حياته الداخلية، فلا يجب أن نستغرب أو نعثر عندما نسمع ذلك؛ لأن الكتاب يقول "إنهما كانا عريانين وهما لا يخجلان فلما تعديا الوصية انفتحت أعينهما ورأيا أنهما عريانين فخجلا واختبئا من الله.

سؤال: فهل نفهم من كلامك أنهما كانا لابسين مجد الله عوضاً عن ثوب؟

جواب: لما كان الروح يقوم بعمله في الأنبياء ويعلمهم وكان في داخلهم ويظهر لهم من الخارج، هكذا أيضاً كان الحال مع آدم. فالروح حسبما يشاء كان حالاً فيه ويعلمه ويلهمه المشورة لكي يتكلم وهكذا عاش ينطق أي يتكلم مع الكلمة لأن الكلمة كان له كل شيء (عظة ١٢: ١، ٦، ٧).

فهل يمكن أن نجد مناسبة في الكتاب المقدس نرى فيها كيف نال آدم الروح القدس غير مناسبة خلقه في (تك ٢: ٧)؟ فالصورة الإلهية كما سنرى بعد ذلك ليست في العظات المقارية فقط، ولكن عند باقي آباء

الإسكندرية هي المماثلة الكائنة بين الله والإنسان.

القديس أثناسيوس الرسولي:

ربما أمكننا أن نلاحظ أن العظات الروحية لمقاريوس المصري تؤكد أن آدم اشترك في اللوغوس أي الكلمة، وأن هذه هي شركة آدم في الروح القدس أيضاً. ونحن نعرف أن المبدأ اللاهوتي السائد بشكل مطلق عند الآباء جميعاً بدون استثناء هو: كل شيء من الآب يُوهب بالابن في الروح القدس. هذه القاعدة وإن كانت تطبق بشكل مطلق على الخلاص، فهي أيضاً تطبق بشكل مطلق على الخلق أيضاً حيث لا يوجد فصل بين الخلق والخلاص، بل كلاهما عمل واحد يمتد من الخلق حتى يوم الدينونة.

اشتراك آدم في الابن الكلمة:

علينا أولاً أن نلاحظ أن كلمة نعمة ليست خاصة بالخلاص فقط، وإنما بالخلق أيضاً. هذه النعمة ليست فقط خلق آدم من العدم، وإنما عطية الله الفائقة أي الصورة الإلهية، وهي شركة الإنسان في اللاهوت وهكذا كتب أثناسيوس "الله جابل الكل وملك الكل الذي يعلو على كل جوهر ويعجز البشر عن اكتشافه، نظراً لعظم صلاحه وسموه كل السمو خلق بكلمته – مخلصنا يسوع المسيح – الجنس البشري على صورته". وهكذا خُلق الإنسان على صورة الله، وتكوَّن في داخل الإنسان – كما يقول أثناسيوس – "القدرة على رؤية وإدراك الحقائق (الخاصة بالله) بواسطة التشابه بين الإنسان وبين خالقه" (الرسالة إلى الوثنيين ٢: ١).

ولكن هذا التشابه ليس مجرد تكوين طبيعي يعود إلى الطبيعة الإنسانية، وإنما هو منحة إلهية أي نعمة "بل إذ قد نال نعمته التي وهبها إياه الله، ونال أيضاً قوة الله من كلمة الآب استطاع أن يصل إلى السعادة بالشركة في اللاهوت، عائشاً حياة الخلود كاملة ومباركة بكل حق" (نفس المرجع ١: ٢).

هذه النعمة هي الشركة في الابن.

إلى هنا أعاننا الرب



ملحق رقم (١)

الفرق بين المسيح والمؤمنين[١]

يجب أن نميِّز بين حلول اللاهوت فينا كنعمة، وبين اتحاد اللاهوت والناسوت في التجسُّد، فحلول النعمة هو حلول نوعي، أي أنه حلولٌ بعطايا محددة للإنسانية مثل عدم الموت، أو التبني. ولكن اتحاد اللاهوت بالناسوت في التجسُّد هو اتحاد أقنوم الابن الكلمة بكل ملء اللاهوت بناسوته المأخوذ من العذراء مريم، وهو وضعٌ خاصٌ بالابن المتجسد. أمَّا حلول النعمة، فهو على قدر حاجة وعلى قدر استيعاب الطبيعة الإنسانية، وأمَّا حلول ملء اللاهوت في التجسُّد، فهو حلولٌ مطلق وتام وحقيقي لا تنطبق خواصه علينا بالمرة.

وقد ناقش القديس كيرلس السكندري هذه النقطة مع الهرطقة النسطورية، وصار من الواضح أن تعبيرات نسطور عن حلول اللاهوت في المسيح وشركة اللاهوت في ناسوت المسيح هي عبارات لا تخص المسيح يسوع ربنا، وإنما هي خاصة بنا نحن البشر. وفي ضوء المقالات الخمس ضد نسطور يمكن أن نميِّز بين المسيح والمؤمنين به على هذا النحو:

أولاً: من جهة مركز الشخصية:

عندما تجسَّد أقنوم الكلمة والابن، فقد تنازل واتحد بالناسوت. هذا يعني أن مركز شخصية الأقنوم المتجسِّد هو لاهوت الكلمة الابن المتحد بالناسوت. أمَّا في حالتنا نحن، فإن مركز شخصية كل مسيحي هو العقل الإنساني المميِّز للنفس الإنسانية.

ثانياً: من جهة مصدر الأفعال

إذا كان اللاهوت هو مركز شخصية الابن المتجسِّد، بينما مركز شخصيتنا نحن هو العقل والإرادة الإنسانية، صار من الواضح أن كل تصرفات وأفعال الكلمة المتجسد هي تصرفاتٍ إلهية إنسانية نابعة من اللاهوت المتحد بالناسوت.

أمَّا في حالتنا نحن، فكل تصرفٍ وعمل هو نابع من العقل والإرادة الإنسانية التي قد تنال نعمة في بعض الأحيان بسبب حلول اللاهوت فينا. وهنا تسند النعمة الإلهية الإرادة الإنسانية، ولا يصبح أي عمل إنساني عملاً إلهياً، وهنا يبرز الفرق بين الاتحاد الأقنومي وحلول النعمة. فالحالة الأولى هي حالة فعل أو تصرف إلهي يتم إنسانياً، والحالة الثانية هي حالة فعل أو تصرف إنساني قد يعان الإنسان فيه بالنعمة الإلهية بحسب

---

(١) تم نشر هذا الملحق في كتابنا معاني رشم الصليب في الحياة الروحية وطقوس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، كما نُشر في كتابنا: القديس أثناسيوس الرسولي في مواجهة التراث الديني غير الأرثوذكسي.

قدرة الإنسان واستعداده الروحي. وكمثال على ذلك، فقد استطاع الابن الكلمة أن يخلق من الطين عينين للمولود أعمى، وقد تم هذا كعمل إلهي صادر من اللوغوس وبوسيلة إنسانية. هذه بالطبع قدرة ذاتية نابعة من الاتحاد الأقنومي. أمَّا في حالتنا نحن فلا يمكن أن تتم معجزة مثل هذه بالإرادة الإنسانية رغم وجود النعمة؛ لأن النعمة تمنح القدرة على المعجزات لعدد معيَّنٍ مختارٌ من الله. وفي حالتنا تتم المعجزات بالصلاة، ويظل عمل المعجزة قاصراً على النعمة التي فينا، ويظل هذا العمل متمايزاً عن الإرادة الإنسانية لا ينتمي إليها ولا ينبع منها ولا يقع تحت سيطرتها، وإنما العكس.

ثالثاً: من جهة مصدر الحياة

هكذا يظل الفرق بيننا هو فرقٌ بين الابن الخالق والبشر خليقته، وهو فرقٌ لا يزول بسبب حلول النعمة فينا. وهكذا، فكل أفعالنا بشريةً بشكل تام، أمَّا كل أفعال الابن المتجسِّد، فهي إلهية — إنسانية صادرة عن أقنوم الكلمة، وتتم بالناسوت حسب احتياجات خلاص الإنسان.

وهكذا على نحوٍ سري لا يمكن تحديده فلسفياً، نحن نتشبَّه بناسوت المسيح في المجد كقول الرسول بولس إن جسد قيامتنا سيكون على "صورة جسد مجده" (في ٣: ٢١). وطبعاً "جسد مجده"، هو الجسد الذي فيه ملء المجد، أمَّا أجسادنا فهي تمتلئ منه، ويبقى هو متفوقاً كرأس وينبوع، أمَّا نحن فلسنا إلاَّ قنواتٍ صغيرةٍ صادرةٍ أو نابعةٍ منه بسبب الاتحاد. ويظل جسد الابن الكلمة هو "الجسد المحيي" الواهب الحياة، وهذه صفة خاصة به بسبب الاتحاد، أمَّا أجسادنا فتظل كما هي تحتاج إلى نعمة القيامة ولا تهب الحياة لأحد، بل تنال هي الحياة من المسيح.

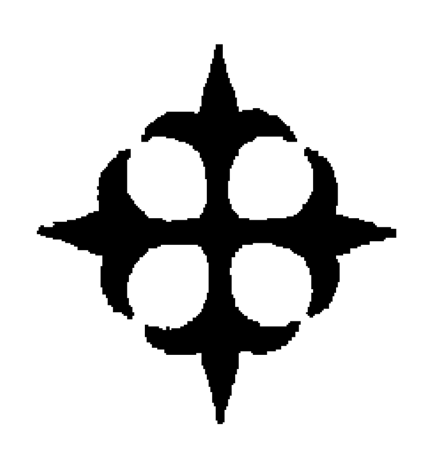
هنا يبرز الفرق الضخم بين الاتحاد والنعمة، ففي حالة المسيح صار جسده مصدر حياة بسبب الاتحاد بين أقنومه وجسده، أمَّا في حالتنا فقد ظل الجسد فينا محتاجاً إلى الحياة، يأخذها من النعمة دون أن تصبح ذاتية فيه ولا يملك أن يعطيها.

رابعاً: من جهة نوع الوحدة

نحن نتشبَّه بالابن الكلمة المتجسِّد كآدم الثاني، وما يخصنا هو ما وزَّعه علينا الرب في التدبير، أي نعمة التبني ونعمة عدم الموت. ولكننا لا ندخل شركاء في علاقة الابن بالآب، أي علاقة وحدة الجوهر الخاصة بالثالوث. نحن نتشبَّه بهذه الوحدة على قدر ما تعطينا النعمة. لكن الفرق الأساسي بين الصورة، أي وحدة المؤمنين والأصل، أي وحدة جوهر الثالوث هو فرقٌ بين ما هو طبيعي، أي وحدة الجوهر، وما هو ممنوح، أي وحدة المؤمنين التي تخلقها النعمة، ولا تملك القدرات الطبيعية الإنسانية أن تقيم وحدة من أي نوع؛ لأن الوحدة هي صفة اللاهوت وحده، أمَّا المخلوقات، فهي تتحد بالقانون الطبيعي وبقدرات الإرادة وفاعلية الفكر. أمَّا وحدة جوهر الثالوث فهي عكس ذلك تماماً لأنها أزلية لم تحدث باتفاق الأقانيم، ولم تنبع بل كانت منذ الأزل، وهي لا تنمو، ولا تعان من النعمة، بل تظل في وحدتها غير المتغيِّرة.

وهكذا إذا قيل عن المسيح إنه "بكراً بين إخوة كثيرين" (رو ٨: ٢٩)، فإننا لا نفهم من هذا أننا نصبح مثله في كل شيء؛ لأن هذا يفوق احتمال الطبيعة الإنسانية، ولم تسمح به النعمة إلاَّ في إطار محدد واضح وهو تجديد الطبيعة الإنسانية.

وهكذا يتم تجديد الطبيعة الإنسانية على النحو الذي تجددت به في المسيح رأس الخلاص، فهو الباكورة والرأس، ومع ذلك يلمع نور وبهاء التجديد في المسيح كما يلمع من المنبع أو المصدر، ولا يتألق أحدٌ مثله لأنه يحفظ لنفسه جمال البكورية الذي لا يتغيَّر.



ملحق رقم (٢)

عقيدة الثالوث

كتعليم عن الحياة والوجود والمحبة

نص محاضرة الأب الأسقف يوحنا زيزيولاس – جامعة لندن ٨ يناير ١٩٩٨. تُرجم عن اللغة الانجليزية بإذن من المؤلف. النص الانجليزي لم يُنشر بعد.

ماذا نتعلم من التاريخ والفلسفة

لا أريد أن أشرح الجدل اللاهوتي مع الهرطقات القديمة مثل الأريوسية فهذا متوفر في كتب معاصرة كثيرة ربما كان آخر هذه الكتب الدراسة التاريخية الجيدة للأسقف الانجليزي *R. Williams* بعنوان أريوس والتي نشرتها دار النشر *SDCK* عام ١٩٩٠م. إن ما يجب أن نتعلمه من الهرطقة الأريوسية هو محاولة هذه المدرسة اللاهوتية تفسير المسيحية على أساس قواعد منطق أرسطو ومنهج الفلسفة اليونانية الوثنية. يجب أن نتذكر دائماً أن كل ما جاء في الفلسفة اليونانية القديمة هو وثني الأصل ويتعارض في أغلب الأحوال مع بشارة الإنجيل ولا يصلح أساساً للتعبير عن الإيمان المسيحي. لقد شرحت هذه النقطة في الفصل الأول من كتاب "الوجود شركة" وأريد أن أؤكد لكم أن أهم الاختلافات مع الفلسفة اليونانية هو:

١– طبيعة الله نفسه.

٢– علاقة الإنسان بالله ككائن خلق على صورة الله.

٣– الحياة الأبدية كهبة وعطية من الله لا يجود بها الكون.

لم يدرك أريوس ولا غيره من الهراطقة أن استخدام المنطق ومنهج ومصطلحات الفلسفة القديمة يؤثر بشكل أساسي في تفسير الإنجيل وتقديمه كرسالة إلهية جاءت من أجل الإنسان ومن أجل عطية الحياة الأبدية. لقد كانت أهم مشاكل المنطق الأرسطوطاليسي هي:

١– استحالة وجود أكثر من كائن في شركة حقيقية واتحاد في الجوهر.

٢– استحالة حلول وشركة كائن في جوهر أو حياة كائن آخر.

والسبب في هذا الموقف الفلسفي يعود إلى نظرة أرسطو إلى فكرة الجوهر على أنه الكيان الذي لا يمكن أن يشترك فيه كائن آخر. الماء له جوهر، وهذا يعني أن العناصر الأخرى مثل الحديد أو غيرها لا يمكن أن تشترك أو تحل أو تتحد بجوهر الماء، بل تستطيع أن تشترك في "أعراض" هذا الجوهر مثل البرودة والسيولة.

وهكذا كان التقسيم الفلسفي والتصنيف الذي أدخله أرسطو هو تقسيم وتصنيف يقوم على "عزل" كل الكائنات، وعلى اعتبار أن كل كائن يحفظ جوهره الخاص به ولا يشترك فيه أي كائن آخر، وما هو متاح يقتصر على الشركة في الأعراض المتشابهة فقط، لأن الأعراض *Accidents* لا وجود دائم لها. وظلت هذه الفكرة تشغل اهتمام الهراطقة الذين جاءوا بعد أريوس مثل نسطور وقبله ابوليناريوس. فقد كان كلاهما لا يؤمن بإمكانية اتحاد حقيقي بين جوهر اللاهوت وجوهر الناسوت؛ لأن منطق أرسطو كان يؤكد لهما أن الجوهر إذا اتحد بغيره فقد كيانه وتحول بسبب الاتحاد إلى جوهر آخر أو عرض أي لم يعد *Substance* بل تحول إلى *Accident* وهكذا كان اتحاد اللاهوت كجوهر إلهي بالناسوت كجوهر مخلوق هو مشكلة نسطور الأولى قبل هجومه الحاد على لقب والدة الإله *Theotokos*.

وكما ذكرت في كتاب "الوجود شركة" أن أهم ملامح الفلسفة اليونانية هي أنها فلسفة طبائع *Natures* وليست فلسفة أشخاص *Persons* فالجوهر فكرة عقلية غير شخصانية *Impersonal* تصلح لدراسة الطبيعة *Physics* والكيمياء *Chemistry* ولا تصلح لدراسة الأشخاص.

طبعاً لا زال اللاهوت المعاصر يصارع من أجل التحول من الطبيعة *Nature* إلى الشخص *Person* لأن الحضارة – وبشكل خاص الطب الحديث، والثقافة أي مناهج التعليم – وُضِعَت على أساس الفلسفة اليونانية القديمة، أي أن كل المناهج تحاول أن تُعلِّم الطبيعة وليس الأشخاص بما يملك كل منهم من فروق ومميزات شخصية. ويمكن أن نرى هذا في اللاهوت النظامي القديم السابق على اكتشاف علم النفس *Psychology* فهو نظام فلسفي متكامل يعود إلى النظام اللاهوتي *System* الذي وضعه ألبرت الكبير وتوما الأكويني، وهو نظام يدرس الطبائع.

طبعاً الحضارة المعاصرة – بسبب علم النفس وبسبب النقد الحاد الذي وجهته الوجودية *Existentialism* لفكرة الطبيعة *Substance* على أنها فكرة مجردة *abstract* لا تصلح للكلام أو لشرح أهم ما يميز الإنسان، وهو انه كائن كصورة الله ومثاله (تك ١: ٢٦) وليس كطبيعة *Nature*. هنا يلزم أن نقول أن القديس مكسيموس المعترف كان أول من أدرك أن المشكلة مع الفلسفة اليونانية لا يمكن حلها فلسفياً، بل يجب أن تترك تماماً وأن تصاغ فلسفة الإنجيل بذات المصطلحات الفلسفية الشائعة في العالم القديم بدون المبادئ الفلسفية، بل من أجل الاحتفاظ ببشارة الإنجيل. وكان أول انجاز فلسفي هو تأكيد مبادئ الإنجيل التي دافع عنها القديس أثناسيوس والقديس كيرلس السكندري وهي:

١- مصالحة الله مع الإنسان في المسيح.

٢- شركة الإنسان في المسيح في حياة الثالوث القدوس.

وهذا بالذات الذي حطَّم الفكرة اليونانية القائمة على أساس تحديد الجوهر *Substance* بأنه كيان لا يمكن الاشتراك فيه بالمرة، بل يمكن الاشتراك في بعض أعراضه *Accidents*. كيف حدث هذا التحول؟

الجواب نراه في المقالات الأربعة للقديس أثناسيوس السكندري ضد الأريوسيين. فقد عاد القديس أثناسيوس إلى تعليم الوحي عن الجوهر الإلهي، ولذلك اعتبر أن الطبيعة الإلهية هي طبيعة خصبة *Fertile* وليست عقيمة أو جدباء وأن ولادة الابن الأزلية هي ولادة تؤكد أن الله مثل الينبوع تفيض حياته وجوهره بالابن الكلمة ولا يبقى في حالة جفاف، وأن هذه حركة حياة وليست حركة جوهر، أي حركة شخص الآب الذي هو أصل ومصدر هذه الحياة. هنا أبوة الآب *Fatherhood* لا يمكن مصالحتها فلسفياً مع فلسفة أرسطو، وهكذا يجب أن يظل التعارض قائماً مهما كانت المبادئ الفلسفية، لسبب واضح جداً، وهو أن الفلسفة اليونانية لا تعرف بالمرة التعليم الخاص بالنعمة *Grace* ورغم وجود هذه الكلمة في اللغة اليونانية إلاَّ أنها غريبة تماماً عن المنهج الفلسفي اليوناني في كل مدارس الفلسفة القديمة.

أشعر أحياناً أن القديس بولس الرسول كان يُدرك حقيقة الصراع الفكري القادم، ولذلك وضع النعمة كأساس للتعليم عن الإنجيل في العالم اليوناني لكي يرتب الصراع القادم مع مدارس الفلسفة على أساس أن قوام الإنجيل هو نعمة الله. النعمة تتعارض مع فكر أرسطو ومع فكرة تمايز جواهر الكائنات لأنها [أي *Essence* النعمة] لا تؤمن بالعزلة بل بالخلاص *Salvation*. وهكذا جاء الخلاص – كبشارة – بالمعول الأول الذي هدم التعليم الوثني القديم.

أتمنى أن نقف احتراماً للقديس أثناسيوس الإسكندري لأنه أدرك ببصيرة مستنيرة بنور الروح القدس أن المصالحة والفداء والخلاص والتقديس والنعمة وسائر الكلمات الأخرى كلها معاً دون تمييز تؤكد المبدأ الإنجيلي الثابت، وهو شركة الإنسان بسبب صلاح الله في الحياة الإلهية، أي الشركة في الطبيعة الإلهية، ليس حسب تحديد أرسطو لكلمة طبيعة، بل حسب بشارة الإنجيل التي تقوم على أساس المبادئ اللاهوتية التالية:

١– تجديد الإنسان ورده إلى ما كان عليه.

٢– بقاء الإنسان إلى الأبد في الخلاص الذي حققه يسوع المسيح.

أعود إلى ما ذكرت من قبل عن أهم الاختلافات وهي:

١– طبيعة الله نفسه.

٢– علاقة الإنسان بالله ككائن خلق على صورة الله.

٣– الحياة الأبدية هبة وعطية الله.

طبيعة الله:

عندما نتحدث عن طبيعة الله يجب أن يكون في أذهاننا دائماً أننا نتحدث عن أبوة الله الآب، وليس عن طبيعة مجردة *abstract* والفرق بين الطبيعة في الفلسفة والطبيعة في اللاهوت، هو فرق ظاهر. فالإنسان – مثلاً في – الفلسفة هو كائن تحكمه القوانين الخاصة بالجوهر الإنساني، أمَّا في اللاهوت، فالإنسان كائن تقيده

الخطية وحدها، فهو كائن حر *Free* مثل الله خالقه. والإنسان يسمو فوق حدود وإمكانيات الطبيعة بسبب الحرية. كما يمكن أن يسقط تحت سلطان الطبيعة بسبب فساد الخطية الذي أدخل أخطر تغيير في طبيعة الإنسان، وهو الموت *Death*.

لا يخضع الله لطبيعة اسمها الطبيعة الإلهية. هذا غير جائز بالمرة في اللاهوت لأن هذا معناه سيادة القانون *Law* على الكائن أو الشخص، وتحول الشخص إلى *Person* إلى طبيعة.

يشرح الثالوث لنا حياة الله الآب المعلنة في ابنه الوحيد بالروح القدس. هذا هو خلاصة التعليم المسيحي كما شرحه الآباء العظام جميعاً دون استثناء. هذه الحياة غير مقيدة بالمرة، والسبب في ذلك هو ما تؤكده المسيحية "الله محبة" (١ يوحنا ٤: ٨). فالمحبة فكرة غريبة تماماً على الفلسفة اليونانية. والمحبة هي الوجود الإلهي الخاص الذي يتميز بالعطاء. المحبة هي حياة الله التي تسمح بالشركة دون أن تهدم أو تقضي على الإنسان. وهي شركة لا يمكن لأرسطو أن يدركها، لأنها شركة محبة وليست شركة طبيعة تحكمها القوانين. نريد أن نتحدث في مناسبة أخرى عن منطق المحبة *Logic of Love* كما شرحه الرسول بولس في (١ كورنثوس ١٣: ١-٧) لأنه هو أهم نقد عند الرسول بولس لما ذاع في العالم القديم عن المحبة، ولِما علّمت به مدارس الفلسفة اليونانية. يكفي الآن فقط أن نقول إن المحبة ليست طبيعة حسب تحديد أرسطو، بل هي طبيعة حسب تحديد الإنجيل، أي حياة الله الحرة التي تعطي "بسخاء" لكي ترد *Restore* ما قد هلك، وهو ما لا يمكن فحصه بأدوات الفلسفة.

حسب تعليم الإنجيل المحبةُ شخص، والشخص هو الذي يحدد طبيعته. الطبيعة لا تحدد *Defined* الشخص، فهذا معروف لنا تحت اسم آخر هو الخطية والفساد؛ لأن سيادة الطبيعة على الشخص هي سيادة سببها الموت. وهكذا لا يوجد في اللاهوت الشرقي الأرثوذكسي شخص مع طبيعة، بل شخص هو الطبيعة، أي حسب عبارة مكسيموس المعترف، ومن قبله القديس كيرلس السكندري لا توجد طبيعة يضاف إليها الأقانيم، بل الطبيعة هي الأقنوم. هذه الفكرة بالذات لم يقبلها تلاميذ أرسطو. ولذلك كان الاتجاه السائد في الإسكندرية هو اعتبار الأقنوم *Hypostasis* هو الجوهر *Substance* هو اتجاه فلسفي مقصود من أجل تجنب الوقوع في براثن الأريوسية وبراثن الأصل الفلسفي للأريوسية وهو فلسفة أرسطو. وظل هذا الاتجاه سائداً حتى بعد القديس كيرلس. أمَّا ما جاء به الآباء باسيليوس وغريغوريوس النزينزي وغريغوريوس النيسي بأن الجوهر هو عام والأقنوم هو الوجود الذي يتمايز في داخل الجوهر، فهو بدوره محاولة فلسفية تهدف إلى القضاء التام على فلسفة أرسطو، وذلك بتأكيد وجود الجوهر وبحرية الأقنوم في الوجود الحر الذي يحفظ فيه الأقنوم صفة أقنومية خاصة يشترك فيها الأقنوم الآخر بسبب الشركة، وليس بسبب سيادة الطبيعة. أو بلغة معاصرة التمايز الأقنومي هو تمايز لا تكونه الطبيعة، بل حرية الشخص أو الأقنوم.

هذا ينسجم تماماً مع التعليم المسيحي الذي يؤكد أن سيادة الطبيعة على الشخص هي حالة الفساد والموت و [أن] الخطية هي السبب في ذلك. طبعاً حتى في الله لا تسود المحبة على الأقانيم؛ لأن المحبة ليست

طبيعة تفرض نفسها على الله، بل هي حركة الحرية الحقيقية لله الكامل المحبة الذي يعطي بسخاء وحرية دون أن يخضع هذا العطاء لطبيعة تقيِّده، بل لإرادة الشخص أو الأقنوم. هذا صعبٌ على كل من يضع الطبيعة قبل الشخص. أقدم لكم مثلاً صارخاً على ما أقول. إذا تعاملت مع الماء فأنت مرغم على قبول جوهر وطبيعة الماء والتحايل عليه من أجل السيطرة عليه. إذا فشل اختراع السيطرة على الماء سقط الإنسان ومعه اختراعه تحت سطوة طبيعة الماء ودمر الماء الإنسان ومعه الاختراع مثل السفن أو السدود أو القناطر وغيرها التي يراعي فيها المخترع طبيعة الماء وحركته .. الخ.

أمَّا إذا تعاملنا مع الشخص أي الإنسان، فإن التعامل يدور دائماً – دون أن ندري أحياناً – على أرض الحرية. وحتى في حالات القهر، فإن ضحية الاستبداد يكون قد قبل بالتنازل عن حريته، ولذلك أصبح ضحية العلاقة بين الأشخاص، تؤسسها الحرية دون أن تحكم فيها الطبيعة، إلاَّ في حالات الخطية وحدها.

علاقة الله والإنسان:

إذا تحدثنا عن علاقة طبيعة مع طبيعة أخرى، فإن مشاكل كثيرة سوف تعترض التعليم المسيحي. أمَّا إذا تحدثنا عن علاقة الأصل بالصورة حسب تعليم المسيحية، فإن المشاكل أقل وحلها ليس صعباً.

١- لا وجود للإنسان بدون الله.

٢- يظل الإنسان حتى في حالة الخطية والفساد والموت كائناً بالقدرة الإلهية، فهو قادر بحريته أن يترك الله، ولكن يظل رغم ذلك ينال الوجود؛ لأن كل الكائنات كائنة بكلمة قدرة اللوغوس ابن الله (عب ١: ٣).

٣- يستطيع الإنسان أن يحيا في عزلة تامة عن الله. هذه العزلة تحول الإنسان من شخص حر إلى طبيعة يسود عليها قانون الموت.

أهم مميزات اللاهوت الأرثوذكسي:

هذه النقاط الثلاثة هي خلاصة تعليم المسيحية الشرقية. وهكذا يجب أن نحدد هنا مميزات اللاهوت الشرقي الأرثوذكسي.

١- الخطية قانون. وقانون الخطية هو الفساد والموت. هذا عكس الخلاص؛ لأن الخلاص نعمة، والنعمة ليست قانوناً، بل عطية والعطية هي سخاء وجود ومحبة الله الآب بابنه يسوع المسيح وفي الروح القدس. هنا يجب أن نتوقف عند هذه الحقيقة الصارخة لأن تحول النعمة إلى قانون يعني فلسفياً أن تفقد النعمة جوهرها وتصبح مثل الخطية تسود للفساد والموت. ولاهوتياً لا تصبح ثمرة المحبة، بل ثمرة صراع طبائع. لا تسود النعمة على الإنسان إلاَّ بإرادته، وهي لا تسود لكي تدمر، بل تسود لكي تخلص. وهنا تصبح السيادة هي عطاء غزير وليس سيادة القهر؛ لأن القهر هو من علامات السقوط والموت والفساد الذي جاء مع الخطية. يلزمنا أن نتحدث في مناسبة أخرى عن الفرق بين الخطية والنعمة.

٢- النعمة عطية حرة بلا مقابل، ولمن لا يستحق، ومن أجل بقاء عطية أخرى، وهي عطية الحرية. يجب أن نقول إنها عطية المحبة. ومنطق المحبة حسب تعليم الرسول بولس هو منطق الخلاص وتحرير الإنسان. هذا لا يمكن أن ندركه إلاَّ بالعودة إلى تعليم الآباء عن الثالوث. ويجب أن نلاحظ أن النعمة دائماً في حالة المفرد وليس بصورة الجمع. هذا يختلف عن المواهب، لأن المواهب *Charisma* كلها مؤقتة ولا تدوم، فهي خاصة بإعلان الخلاص في الزمان الحاضر ومن أجل مجد إنجيل المسيح، وهذا ما يؤكده الرسول بولس إذ يضع الروح الواحد والرب الواحد في مواجهة المواهب المتعددة مؤكداً بذلك عودتنا إلى الله الواحد؛ لأن الوحدة لا تقوم على تنوع وتعدد المواهب، فهذا هو منطق علم الطبيعة لأرسطو، بل تقوم على الاتحاد الحر من أجل هدف عظيم هو الحياة الأبدية. وهذه هي بشارة الإنجيل، ولذلك السبب كان اختيار عنوان هذه المحاضرة عن الحياة والوجود والشركة. نحن لا نملك أن نفهم تعليم المسيحية بدون الثالوث.

يجب أن نتوقف من آن لآخر لكي ندرس ونراقب التراب الحضاري *Dust* الذي يقع على ذهب الإنجيل. أول هذا التراب هو سيادة المناهج *Methods* والنظم *Systems* والمصطلحات على الفكر الإنساني لدرجة تنعدم فيها الحرية. هنا - بشكل خاص - نستطيع أن نرى كيف أهالت الحضارة تراباً كثيفاً على موضوع الخلاص نفسه عندما استطاع القانون والفكر السياسي الأوروبي منذ زمن *Anselm* أن يصف الخطية ويحددها بشكل قانوني لا يشمل موضوع الحرية والإرادة. وهكذا جاءت فلسفة العصر الوسيط وفكر عصر الإقطاع بتعريف الخطية على أنها "اعتداء على الله". ولو شرحت هذه الفلسفة الخطية على أنها أيضاً قهر وانعدام لحرية الإنسان لكان الوضع أفضل.

في نور عقيدة الثالوث نرى الخطية والسقوط .. الخ على أنه تجاوز الحرية، وهو تجاوز استعبد الطبيعة الإنسانية وحول البشر إلى "أشياء" *Objects* أو بالحري *Items* وجاء فقدان الحرية - حسب شرح القديس أثناسيوس الرسولي في كتاب تجسد الكلمة - بتحول الإنسان من الحياة حسب الله، أي الوجود الحر إلى حياة حسب الفساد، أي الوجود حسب الطبيعة الأولى التي خُلق منها الإنسان وهي العدم. هذه العبارة الدقيقة للقديس أثناسيوس لم تحظ بالدراسة الدقيقة. ماذا يريد أثناسيوس أن يقول وهو يعلم أن كلمة العدم = اللاوجود. كيف يصبح اللاوجود هو الطبيعة الأولى؟ والجواب بسيط للغاية. لم يعد الإنسان يحيا كصورة الله الحي الحر، بل أصبح يحيا حسب قانون الطبيعة الأولى أي العدم، أي تحول كل شيء في كيانه من فكر وإرادة .. الخ إلى رؤية المصدر الأول لوجوده أي العدم، أو حسب عبارة الرسول بولس "البطل" أو العبث *Fultility*. لم يعد للوجود هدف وهو الله، بل صار الوجود يؤدي إلى الموت، وهو ليس هدفاً، وانتقال الإنسان من الحياة إلى الموت هو ضياع غاية أو هدف خلق الإنسان، وهو مشكلة الله الخالق الصالح، ومشكلة الإنسان المستعبد للموت. ماذا يفعل الله؟ والجواب هو أن يجيء الطبيب لكي يعالج "إهمال" البشر ويجدد خلقة الإنسان ويرده إلى ما كان عليه بتجسد الكلمة وموته المحيي .. هنا لا يجب أن نفهم هذه العطية الفائقة من خلال النظام *System* الخاص بالطبائع حسب فلسفة أرسطو، بل من خلال الإنجيل؛ لأنه لا يجوز فلسفياً أن

تخضع مدرسة إلى مدرسة أخرى تختلف معها في كل شيء، أي مدرسة الإنجيل إلى مدرسة أرسطو.

ينقد الثالوث خطية الإنسان ويعلن له أن القهر والاستعباد هو خضوع للطبيعة الفاسدة، ويعلن له المحبة الحرة غير المستعبدة. حتى توما الاكويني قال إن خلاص الإنسان لم يكن ضرورة خضع الله لها، بل كان بشارة محبة أعطيت بفرح وحرية (الخلاصة اللاهوتية سؤال ١٠٤ فقرة ٨٢ س).

هكذا أعلن الله محبته الكبرى الفائقة عندما كشف عن حقيقة حياته الإلهية. الله الواحد الذي لا ينقسم. الله الواحد الثالوث الذي هو بالثالوث غني وحر يفعل ما يشاء حسب محبته وليس حسب قانون الطبائع.

نحتاج إلى عقيدة الثالوث في الحضارة المعاصرة لأنها توشك أن تعود إلى القانون في كل شيء وتحول الإنسان إلى شيء من ضمن الأشياء التي يجب أن تخضع للقانون في كل الأمور. يجب أن نترك باب الحرية مفتوحاً بين الله والإنسان لكي يتمكن الإنسان من أن يرى حريته وهو مستعبد لكل النظم. ولعل سقوط النظام السوفيتي هو خير دليل على ما نقول، فقد فشل النظام البوليسي الذي دام زُهاء نصف قرن في أن يحول البشر إلى عبيد وإلى أشياء. وصارت صرخات الشواء والكتاب في أحلك فترات الاستعباد تدعو الناس حتى في معسكرات الاعتقال إلى الحرية.

لماذا نحتاج إلى عقيدة الثالوث؟

أولاً: لأنها جوهر المسيحية.

وثانياً: لأنها دعوة للحرية والتسامي *Transcendence* لكي نستوعب ما يمكن أن نسميه بالطبيعة *Nature* في حرية الشخص.

وثالثاً: لأنها إعلان عن المصير الأبدي للإنسان وهذا أعظم ما يقال لأن الإنسان لن يخلد كآلة *Machine* بل كصورة الله. الطبائع غير قابلة للخلود؛ لأن الخلود هو قانون فرضه أرسطو على كل الموجودات. نحن نخلد في ابن الله، في أقنوم الابن الذي جاء علينا بعدم الموت بسبب واحد، وهو رغبته الإلهية في بقاء الشركة.

رابعاً: لأن عقيدة الثالوث هي صدمة للحضارات كلها حيث يسود النظام على الشخص، وهذا أحد أسباب الثورات في تاريخ الإنسانية.

خامساً: يعلن الثالوث حقيقة المحبة التي تعطي دون أن تسود، وتبذل دون أن تقهر، وتحيي دون أن تبيد. ولذلك يجب أن نتذكر دائماً أن نشيد القيامة "بالموت داس الموت" هو إبادة لقانون الفساد وتحرير الإنسان من سلطان الموت، وبالتالي من سلطان الخطية. هذا لا يمكن فهمه إلاَّ من خلال المحبة الأزلية للآب والابن والروح القدس.

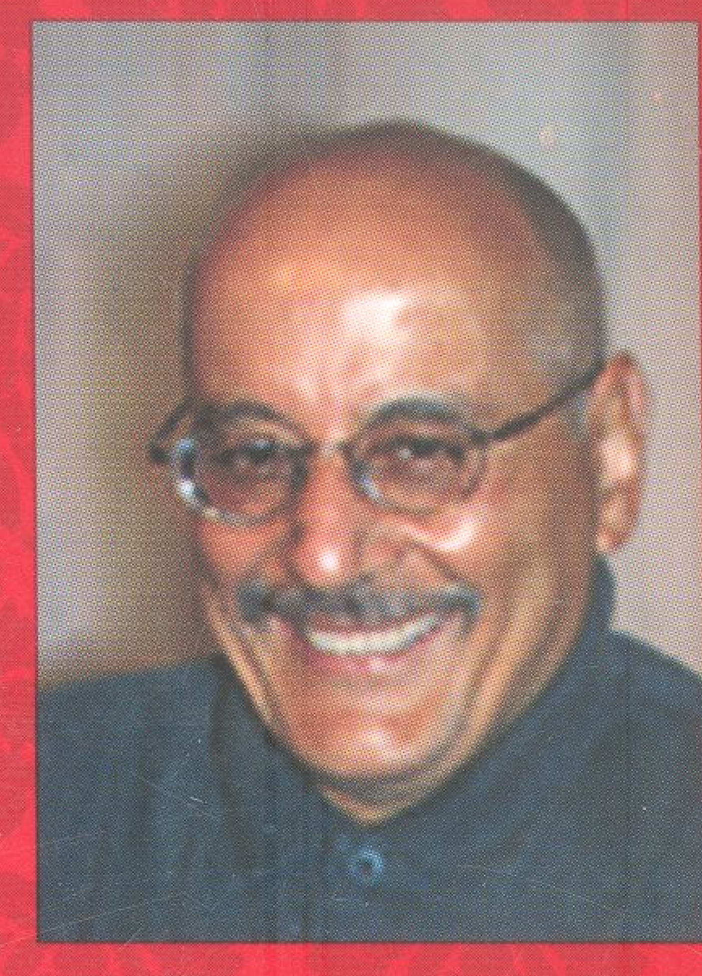
سادساً: الثالوث هو تعليم عن الحياة، وعن الوجود عن التسامي وعن المحبة وإذا فقدنا هذا فقدنا كل شيء وتحول الإنجيل إلى "فلسفة هابطة" غير قادر على البقاء ضمن مدارس الفلسفة.

أخيراً: أرجو أن لا يدرس أيٌ منكم عقيدة الثالوث كدراسة تاريخية لغوية فلسفية وينسى الإنجيل الذي جاء بتاريخ آخر غير التاريخ البشري حيث يفقد الزمان دوره في خلق علاقة بين الله والبشر. وجاء بلغة أخرى هي لغة المحبة أي اللسان الجديد (مرقس ١٦: ١٧). وجاء بفلسفة أخرى هي البذل والعطاء والنعمة. لماذا نحتاج إلى عقيدة الثالوث؟ الجواب في عبارة واحدة لكي نحيا كبشر خلقوا على صورة الله.

تعريب د. جورج بباوي

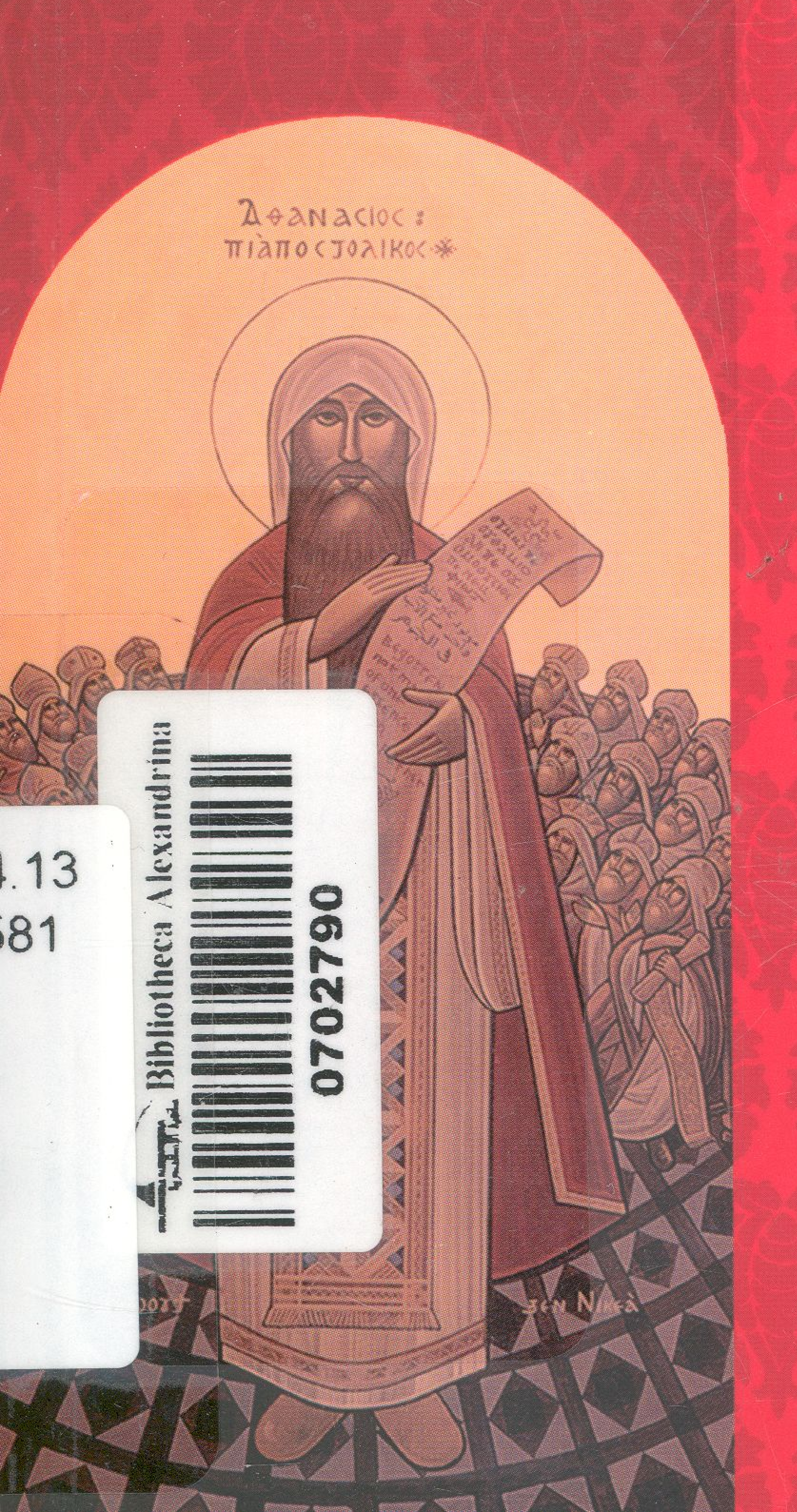
١٠ يناير ١٩٩٨





الدكتور جورج حبيب بباوي

* ولد في القاهرة عام ١٩٣٨
* تتلمذ على القمص مينا المتوحد (قداسة البابا كيرلس السادس) لمدة ثلاث سنوات.
* التحق بالكلية الإكليريكية ـ القسم العالي ١٩٥٧
* عُين معيد بالكلية الإكليريكية.
* درس في جامعة كامبريدج وحصل على درجة الماجستير والدكتوراه ١٩٧٠
* سكرتير رابطة معاهد اللاهوت بالشرق الأوسط.
* سكرتير لجنة الحوار اللاهوتي مع الكنيسة الكاثوليكية.
* مدرس في معاهد اللاهوت الأرثوذكسية والكاثوليكية والإنجيلية بمصر ولبنان.
* وكيل القسم المسائي الجامعي ـ الكلية الإكليريكية ـ القاهرة.
* مدرس بجامعة برمنجهام ١٩٨٤
* مدرس بجامعة نوتنجهام ١٩٨٤ ـ ١٩٩٩
* عميد معهد اللاهوت الأرثوذكسي ـ جامعة كامبريدج إنجلترا.
* مدرس بقسم الدراسات العليا ـ جامعة كامبريدج ـ إنجلترا.
* عميد معهد اللاهوت الأرثوذكسي ـ إنديانا ـ أمريكا.
* نشر العديد من المقالات في الدوريات والمجلات الدراسية.
* ترجم بعض كتب الآباء إلى اللغة العربية.
* خدم مع رئيس الأساقفة أنطوني بلوم ـ مطران غرب أوروبا الأرثوذكسي.
* خدم مع الأسقف كاليستوس وير أستاذ الآباء بجامعة أوكسفورد.
* حاضر في جامعات: كامبريدج ـ أوكسفورد ـ لند (السويد).
* أستاذ زائر في جامعات أمريكا.



سعر النسخة
٥,٥ جنيه

